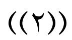
يا لغزلان الصحارى ..

....



قصة

يا لغزلان الصحارى

أحمد مصارع

يا لغزلان الصحارى

تأليف: أحمد مصارع

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ٠٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

(١)

وأخيراً أصبحت وحيداً..!.

أخيراً ضعت وسط الصحراء الكبرى..!!.

أنا أضيع!!.. يا إلهي كيف وأين تتركني أضيع؟!.

هل أنا الآن مجرد كائن حي وسط الصحراء الكبرى؟!.

لن أصدق أبداً!، أبداً لن أصدق، بأنني ضائع بين هذه الكثبان الرملية الوديعة.. عما قريب سأموت عطشاً!!.

هذا غير معقول؟ سأظل أصرخ محتجاً حتى أموت من الصراخ أو الاحتجاج، فمثلي لا يموت بسهولة، وكأنني عشب ربيع، نبت فوق الدور، ثم عرش للحظات، وهاهو يموت من رياح الصيف الحارة، هكذا وبكل سهولة، يجف ويصفر وبعد أن يتمايل نشوان من خضرة الربيع، وأنسامه الريانة الباردة، لن يكون موتي سهلاً، ولن أستسلم أبدا، لماذا أموت أصلاً؟!. فمثلي لن يموت أبداً من مجرد خريف.

أنـا مـا جئـت إلى هـذه الحيـاة بـسهولة، لقـد ولـدت ومـن حولي إرهاصات كثيرة، وسط آثار قديمة، آثار شامخة لم تمـت بعـد، ولـذلك سـأعيش بـالرغم مـن ورطـتي وضـياعي، ولو بصعوبة.. لقد جاورت الموت، وهو بالقرب مني، إنه يفتل حولي بشكل غبي وبليد.. أنا لا أحبه فماذا يريد؟..

الليـل الـصحراوي الطويـل، ينفـث أنفاسـه الـسحرية، يتنفس بحريـة، يـصمت حينـاً ويـتردد، ثـم يـشرع كـالأعمى بالـسؤال عـني، يتحـسسني، بكـل غبـاوة، وكأنـه جـائع ينتظـر، ينتظـر لحظـة الاسـتواء والنـضج، يطـبخني ولكـن بغباء، لأنه نسي أن يملحني، والملح هاهنا نادر للغاية.

اعـترف الآن، قـل شـيئاً، تـذكر مـا شـئت، قبـل أن تصبح مجرد ذكريات، هيا أسرع، فأنت في قلب الصحراء الكـبرى، ومـن النـادر أن يفلـت مخلـوق مـن قبـضتها، فقـد تعودت البلادة، وهي تهصر وتعصر كل شيء، لأنها جافة وذابلة، ولا تريد هي بالذات أن تموت من العطش؟..فمن أين أبدأ؟!..

....

لست أنا الوحيد التائه والضائع بالصحراء الكبرى.. الكل ضاع وتصحر!...

إنني أتذكرها الآن كما تتذكرني هي.. إنها زوجتي وشريكة عمري؟!.. تحيط بي من كل الجوانب والاتجاهات كما تحيط بي الآن الصحراء الكبرى!.

ليس الأمر سهلاً، كما هو حال الصحراء الكبرى، من أين أبدا؟ ومن أين أنتهي؟!.

كل شيء هاهنا له أول وليس له آخر؟!.

الذكريات القريبة مني بشعة للغاية، ولكنها شبه حقيقية، فالقريب مني متصحر، والبعيد عني مخضر، فالأول مشئوم للغاية، والثاني ينشد الحظ، ينتظر قدومه كمعجزة، قريبة جداً.

أتذكرها الآن وهي تدعوني بصوت، يشبه صوت عصفور صغير، يزقزق بفوضى عجيبة وهو يظن أنه قد ملأ المكان حبوراً..

-: تعال ونم هنا.. تعال يا زوجي.. يا حبيبي؟.

-: هيا نم في أحضاني، ضع رأسك هنا ونم..

-: عليك أن تنام يا حبيبي.. حاول أن تنسى كل شيء.. غداً يوم آخر.

-: لا تؤبد شعورك بالهزيمة، لحظات الهزيمة زائلة، حاول نسيان كل لحظة أمس تمضي كارهة لذاتها، لنتسامح وننس الأمس، ففي الغد: من يدري ماذا سيكون؟..

- سيكون كل الخير غداً، لاشيء سوى الخير؟!..

كانت تنام كعادتها عارية، بعد أن تتزين وتضمخ جسدها ألشحمي الطري، بعطر جذاب، ومن اللحظة الأولى لتداعيها فوق الفراش تشرع بالنداء العاجل لأتوسد حضنها، وكأنها تستعجل بلهفة موعداً كان قد تأخر طويلاً، وهي حريصة جداً، على أن لا يفوتها أبداً، فالليل وفي كل ليلة، لابد أن يمضي عبر متاهات في نفق العناق أو مجرد ساعة حمراء ثم يسدل الستار على الجسدين المنهكين من المتعة، وهي آخر المشاق الماضية من الأمس، ففي الغد نهار آخر، فمن يدري ما الذي يخبئه الغد؟.

فهل كانت كذلك؟.، لست أدري ولكنني كنت لحظتها ساخطاً من كل شيء من أصلي وفصلي، ألعن كل تاريخ حياتي، وكل لحظات وجودي.

حاولت أن أنام، كان كل كياني يهتز من الرفض؟.. فكيف بعت نفسي بثمن بخس للغاية؟!..

تساءلت ساخطاً وكلي غضب شديد:

-: يا حبيبتي، من أنت أيتها المسخوطة بل والملعونة الأبدية حتى أرقد بجوارك؟!!... سأنام بجوار الشيطان، إلا بجوارك أيتها العفريتة.. دعيني أجمع أجزاء نفسي المبعثرة بين متاهات جحيم الضياع، بين الحريق وألم لن يبرد أبداً حتى لو غمرته كل مياه بحر الفرات بحثاً عن مجرد لحظة صفاء تتيح لي ولو للحظة معرفة من أنا وأين أكون في فضاء كوني صار كل ما فيه مريعاً.. آه لو كانت تضحك على الدوام لظلت ترسل إلى روحي المضطربة الإحساس بالسعادة والسرور، بيد أنها سريعة التقلب فسرعان ما تتقلب ساخطة بل وناقمة على كل شيء.. نعم كل شيء، لقد اكتشفت أنها مريضة نفسياً، ولكن بعد فوات الأوان.

في لحظة من العذاب والألم، كنت أعاني فيها من كابوس، من صور كلمات تتردد بإيقاع مرعب:

-: لست أنت سوى بداية الجهل الفظيع، لست سوى نهاية موت مريع ..

أنت الآن مطوق من كل الجهات، من الخير أن تستسلم من دون مقاومة، فالصحراء الكبرى، يمكنها أن تقبر بيسر أكبر جيوش العالم، إنها كالقضاء والقدر الذي يحيط بك، فقم الآن من مكانك وتحرك، ولا تنس أن تتعرى وتتسلخ، لكي تتحول إلى حيوان أليف، ولا تنس أن تكف عن التشبث بحبال الماضي، فالصحراء هي الماضي البعيد، وحين تتحرك فتحرك بهدوء تام، فلا تثر الضجيج أبداً.

لو كنت أحب الحياة، لما كرهتني، لذلك لم نتوافق يوماً ما، ولن تجمعنا غير اللحظات العابرة، لحظات من السذاجة الطفولية، وربما هي الغريزة التي تدمدم بالرغم عن كل لحظة وعي.. ؟..

الانقطاع والهجر، ثم الجفاء يعقبه الإهمال واللاشعور، وأحياناً التحدي السافر الممزوج بالتحدي

والصلف، وهي أشياء تكفي لاتخاذ قرار حقيقي بالهروب نحو الصحراء، والبقاء هناك بحثاً عن النهاية في اللانهاية..

....

سأتوقف الآن عن التدخين بشراهة تعيسة، لقد تجمدت عيوني من كثرة التحديق ساهماً، في فراغ لانهاية له، ينبغي أن أشرب الشاي، أشعر بالعطش والجفاف، ومرارة الدخان في حلقي، لذا رحت أوقد النار، ففي السيارة كتب وأوراق تكفي لتحضير الشاي لمدة طويلة، وعلبة شاي الزهرة، وهو شاي سيلاني فاخر، وكذلك أوراق نعناع جافة، وكمية من السكر تكفي لاستهلاك عائلة لمدة شهر، ففي صبيحة اليوم كنت قد اشتريت المؤونة الشهرية من الجمعية الاستهلاكية، وهي تشاركية للموظفين.

للشاي الأخضر طقوسه الصحراوية، ولإعداده بشكل جيد، يجب عليك أن تكون صبوراً، وذلك عند خلطه بالنعناع والسكر، فالشاي غير المؤكسد سيحرق الدم، سأقوم الآن بتقليبه من وعاء لآخر حتى يصبح مفعماً

بكـرات الهـواء والأكـسجين، إلى أن يـبرد ويـسود لونـه، فعندها فقط ستشرب الشاي المنعنع.

....

في كل مرة نرحل، مـن بيت لآخـر، وفي المـرة الواحـدة قـد لا يـدوم بقاؤنـا حتـى حلـول الـسنة الكبيـسة، فرحيلنـا دائم، من مكـان لآخر، وكأننا بدو رحل، ولكـن مظـاهر بداوتنا مخفية عن الأنظـار.. مـا معنـى أن يكـون هـذا البيـت الجديد مبهوراً، ذلك يعني أنه كثير الضياء، ومعه يتسرب الغبار والعجاج.

تصرخ فجأة:

-: هذا البيت مبهور ..

-: وهل هناك أجمل من ضوء ربي!.

-: أنت اصمت فقط، فأنت لا تهتم بـأي شـيء.. أعرفك تحب الوسخ..

ثم تشرع بالعمل، ليلاً ونهاراً فقط مـن أجـل سـد جميـع منافـذ الـضوء وحتـى الهـواء، وحـين يتحـول البيـت إلى سـجن حقيقي، تظهر عليها مؤقتاً علامـات الراحـة.. لقـد وقعـت في شراك جنية..

كانت جميلة، وغزالة، وكانت من حين لآخر تردد القول:

- كيف تريدنا أن نتحد؟!. ما رأيك بوضعية الصياد والغزالة؟..

ليس لمثلي أن يختار، فالجمال بدون رهبة وسكون يحيط بي، فالصياد الحقير لن يحس أبداً، أبداً ولو للحظة واحدة، بألم موت النظرات، والحسرة والعبرات، فقد اصطدت بغباء بالغ ظبية، بينما نسيت أن لديها خشفاً ساحراً، الخشف الحائر..

لست صياداً للغزلان وحتى لعصافير الدوري، ولذلك سأختار وضعية الملك، بحكم العادة، فمن فوق إلى تحت سيتحدد الفضاء، وقد لا يتجدد مطلقاً.

(٢)

كانت الصحراء هادئة وساحرة، تبعث في النفس الاطمئنان، فلاشيء فيها يبعث في النفس الخوف، وقت الغروب، فقد كان الجو لطيفاً، فالرمال الصفراء

أصبحت ذهبية وبرونزية ثرية، بينما زرقة السماء أصبحت معتمة كزرقة الكون البعيد، حينها جذبت بقوة مغلاق سطح السيارة، وجلست على السقف أنتظر لحظات قدوم الليل، إلى أن حل الظلام ...

....

كان خالي إنساناً صالحاً، ورعاً وطيباً إلى حد البلاهة، مع كل الكائنات الحية، لم يؤذ أحداً طيلة حياته، لقد كان عاطفياً وعلى درجة غيرية عالية، في الإحساس بآلام الآخرين، كان سهلاً وسلماً واطئاً، تركبه أضعف المخلوقات، لا يعرف الشر، ترى هل سيهرب الأذى من طريقه؟!..

حدث ذلك ذات مساء شتوي دامس الظلام، حين اعترضت طريقه امرأة جميلة، مدت يدها وشفطته بقوة، أين؟ لا أحد يدري؟!.

كان مضطراً لتلبية رغبتها بالزواج منه، ولكن العناية الالاهية ألهمته أن يثبت همته ورجولته، ولمرة واحدة أثناء حياته كلها، فقد اشترط على الجنية التي اختطفته، شرطاً واحداً لا غير، ما هو هذا الشرط؟!.

كانت تصغي إليه متلهفة بشوق، وهي متحر حرة تستعجل عناقه، لتطفئ غليلها منه، حين شرط عليها ببراءة أن العقد على الشكل:

-: ستكونين طالقاً، وتعيدينني إلى الحياة إذا أخفتني في أي وقت كان، حيث التقينا..

وافقت بسرعة، فهي لا تحتمل الانتظار، لأنها كانت على ثقة تامة بأن شيئاً مثل ذلك لن يحدث أبداً، ولكن في الليلة الأربعين، حدث الخطأ الذي لم تتوقعه الجنية أبداً، حين أعياها نهار شاق، ختمته بساعات حمراء، من الآهات والعناق ، وكان السراج المتوهج قد أقلقها، فأغمضت عينيها مجهدة، فطلبت من زوجها وهي ناعسة، أن يطفئ النور، ولكنه كان أكثر تكاسلاً منها، فما كان منها إلا أن تبرمت بسخط، فمدت فمها الدقيق، ليصبح كالخرطوم الطويل، ثم نفخت في فوهة السراج نفخة قوية فأطفأته، حين بدا لخالي فمها كخرطوم فيل ضخم، وهو ينفث الماء بغضب، حينها ارتعد خالي من الخوف، قائلاً لها بكل جرأة:

-: لقد خفت وارتعبت من لسانك الطويل، أظنك ستكونين وفية على العقد الذي فيه شرط وجزاء..

في الحقيقة والخيال، سيكون الحق حقاً، والصدق صدقاً، ولحظتها نفضت الجنية عن سحرها الفتان، كل موجات الحس اللذيذ، فقررت قص أظافرها الزائدة، وخلال ثوان كان خالي يعود إلى بيت أجدادي، بعد أربعين يوماً، كما لم يكن قد غاب عن البيت ساعة، ولم يعترف لأحد بما حدث معه، حتى اقتربت ساعة موته الأخيرة، التي تنبأ بها، وأعلن عنها:

-: في الأسبوع القادم سأموت يوم الأربعاء، عند الساعة الرابعة ليلاً..

قال مستغرباً وحزيناً وهو يروي أسطورة خاله:

- : تخيل، لقد أمضى أيامه الأخيرة في تهيئة قداس موته، وكأنه مسافر إلى جهة بعيدة مجهولة وإلى غير رجعة

وكان ذلك ما حدث فعلاً وبدون أي محاولة انتحار، فقد كان موته سلساً ومريحاً للغاية..

كان الأستاذ سعيد بسطا، يحدثني والنعاس يغالبني، حتى كدت أن أقع في مصيدة خاله العزيز، ومع كل لحظة تراخ على شواطئ البحر الأحمر، في مدينة الغردقة المصرية، كانت تعني بالنسبة لي لحظة تراخ وحلم بالعيش

في حوض سمك (أكواريوم)، مع أسماك ملونة وزاهية الألوان، تتماوج بغنج ودلال، لقد دعاني لزيارة البحر الأحمر بمصر، وهو يردد من حين لآخر :

-: إنك ياصديقي لم تر شيئاً بعد.. لاحقني..

لقد تقطعت أنفاسي من الملاحقة، فزهدت من كثرة تغيير الأمكنة، والانتقال من مكان لآخر، لم يتركني أستقر كي أتفاعل مع روح الأمكنة فرحت أصرخ به مستنجداً:

-: لقد شبعت، كف ياصديقي عن الصراخ، وأنت تدعوني تعال وانظر هنا، تعال وانظر هنا.. دعني أرى ما أريد أن أراه، دعني أتمتع بالطريقة التي أراها مناسبة لي..

كان صديقي يحسب لحظة بلحظة أيام العودة، حيث الفراغات كبيرة جداً، وحيث الحديث سيطول ويطول، ولذلك فهو يحاول نظم هذه الزيارة وكأنها المسبحة الأخيرة.

لا أدري، كيف خطر ببالي أن أحرجه سائلاً:

-: صديقي عمري وطفولتي، كأنك تودع هذه البلاد، كالمسافر من غير عودة؟!.. اعلم بأنني شخص سريع

النسيان، وبعض وصلات دماغي مضروبة، فلا تحاول الزرع في شط مالح..

ابتسم كعادته، وببراءة تشبه طفولة خاله الذي مضى بصمت، ولم يقل شيئاً على الإطلاق.. كأنه سيموت عما قريب، وهذا ما كنت أخشاه..

لم يكن الخال قد دخل العصر الجديد، وهو عصر الكمبيوتر، ففي نهاية السبعينيات من القرن الماضي،كان الخال قد تورط في لعبة البحث عن الإحصاء الزراعي، فكان هناك بيانات ومخططات لن تتم إلا عبر الحاسبة الباسكالية العادية، وفجأة ظهر الكومبيوتر الساحر، وهو ما جعل السنوات الماضية مجرد لحظات بل ثوان، حينها فكر الخال بأن العمر كان قد مضى من غير رجعة؟!.. وبكل بساطة فقد قرر أن يموت.!!..

لقد سجنت لمدة قد تبدو طويلة بحساب اللحظات، لقد تمددت حتى أصبحت دهراً أكبر من الحياة بقليل، وحين حانت ساعات انفراج مهربة، كنت أزداد فيها سخطاً، ولم يفارقني الشعور بالقلق في كل ثانية تمر، لم أشعر بتلك المتعة التي تبدو لي خاطفة، وسريعة الزوال لمجرد ثوان، لقد كان كل ما حولي يبث في جسدي بل وفي كل خلية

من خلاياي سموم الشك القاتل ..فلم يسر من قلقي القاتل صديق مخلص يكره النسيان أو عدو يحاول اصطحابي قريباً أو بعيداً، ولكن لابد من النسيان حتى الهذيان، إلى أن يسود الإحساس بالبلاهة.

....

من حين لآخر، أعود لرؤية الواقع، فتمر اللحظات.. لحظات الوجد والهيام، أو اعترافات واعية.. لا أكون فيها ساهماً، أو مستغرقاً في أحلام يقظة، عندما يشرق الضياء.. عندما تغرب الشمس.. وسط الليل بسمائه الصافية ونجومه المضيئة، أتصفح فيه موسوعة الأبراج.. يحدث ذلك عندما أشعر بالجوع أو العطش، والحرارة أو البرودة.. تلك اللحظات التي تدعوني.. أن أصنع شيئا لأبقى على قيد الحياة.. وحتى لا أموت..

الجو خريفي، ولكنه حار وجاف عند ساعات الظهيرة، ففي قائلة هذا اليوم، توقف الهواء عن الجريان، فارتفعت حرارة الجو، وبدأت أحس بالسخونة.. أشعر بالاختناق.. أنفاسي ثقيلة.. جف حلقي من اليباس.. جذبت سترتي المعلقة على مشجب السيارة.. لبستها كما لو كان الشتاء قد حل.. فرحت أهتف بفرح.. أين المطر؟.. أيتها

السماء الجرداء.. اكفهري الآن.. أين أنت أيتها السحب البنفسجية؟.. صبي علي مطراً سخياً..

وبكل تؤدة وتهاود.. أفرغت الماء على رأسي.. هذا مطر حقيقي أم مطر اصطناعي!.. السترة انتشت وتشربت الماء.. هاهي السترة وقد تلفلفت بها وهي تجلب برد الشتاء والمطر.. أغمضت عيوني وفي غمرة الانتعاش.. أحاول استعادة الذاكرة الربيعية.. سأشتم رائحة الربيع.. وانظر إلى وجهه الباسم حيناً والضاحك حيناً آخر ما أروع الزهور الملونة، والورود العطرة.. أين أنت يا غزلان الصحارى..

آه.. ماذا كان سيحدث لو لم أنقع ثيابي بالماء؟!.. كنت سأبقى ظامئا حتى الموت.. كنت سأظل أشعر بالعطش والجفاف، ولن ترويني كل ينابيع هذا العالم.. إن قطرات ماء فوق الثياب تعادل شرب جرادل ماء.. ماذا لو رأتني الآن تلك الجنية؟.. ستقول لي: ما هذه البهدلة الرذيلة.. هذه هي الهمجية.. تعلم دوما أن تكون أنيقاً فالأناقة ضرورية لكل شيء.. الإنسان أنيق.. أنيق في لباسه.. أنيق في طريقة تناوله الطعام.. في نومه وفي مشيته مزهوا بنفسه.. للأناقة طقوسها الفاخرة.. ومن يلبس الحلل

الزاهية ستتبعث في نفسه مشاعر السرور.. وحتى عندما يموت المرء، فليمت بشكل أنيق.. جاورهم وخذ من طبعهم..

نعم صدقت.. فمثلك لا يجاور الكذب ولا يأخذ من طباعه، بل يتناهى به ..كوني مسرورة وزاهية .. نعم فها أنا ذا أواجه الموت في الصحراء الكبرى وأتساءل ؟ هل سيكون موتي فيها فاخراً وأنيقاً!!.

سألبس رباط العنق المبهدل الآخر مع البذلة المرتوية بالماء، أو من المطر الاصطناعي، من أجل أن أصمد وأبقى على قيد الحياة، وربما لأعود إليك ثانية يا غزالة أضحت بدون فارس..

قد أموت، ماذا ستفعلين؟.. أعرف ماذا ستصنعين إذا ما وجدتني، جثة هامدة وغير أنيقة ..مجرد جمجمة بلهاء فارة من الكرافتة، وهيكلاً عظمياً مضحكاً متبجحاً داخل البذلة (الكوستيم)، ليتك لا تبكين أبداً، فقط ابتسمي كما ترينني أفعل ببلاهة .. أو تصوري ولو لمرة واحدة، فقط اخدعي نفسك .. قولي هذا ليس هو أنا، هذا مجرد هيكل عظمي ظريف.

(٣)

إنهـا مـن الليـالي الأولى، الليـالي الطويلـة الـتي تبـدو بلانهاية، حين أغلقت أبواب السيارة من الـداخل، وكـذلك الـشبابيك، وأبقيـت نافـذة الـسطح مفتوحـة علـى الـسماء، ورحـت أقـرأ الكتـاب المفتـوح علـى الكـون، و هـو كتـاب الأبراج الفلكية، وفيه ترتسم النجـوم كحـروف في كتـاب أزلي الوجود.

كل الـسير والقصص انفتحـت علـى المجاهـل البعيـدة، وكلحظـة نـزع المـوت بـدأت أسـتعيد قـصة مـوتي وحيـاتي، واعترافـاتي الأخـيرة قبـل مغـادرة الحيـاة اللئيمـة بجوارهـا، وهي حياة لا تستحق التسجيل...

سأنام الآن في حضن الرمل الناعم كحضنها الـدافئ، يـا ليـتني أسـتطيع النـوم، فالتـضاريس الناعمـة والطريـة مـن حولي وهـي تـضمني بنعومـة، ليـست كحـضنها المبتـسم بـل والـضاحك، وكـأن كـل العـذابات الأليمـة والـساعات

الموتـورة قـد اختفـت فجـأة، وبـشـكل انمحـى فيـه التـاريخ وزالت إحداثيات المكان والزمان .

سأهجر النوم للأبد، لا، لابد من الاعتراف بأن كل لحظة موت بقربها أهون ألف مرة من الحياة بعيداً عنها، فلم يعد أي شيء يجمعني معها سوى قذارة التاريخ وبلادتي التي تحققت منها الآن وذات يوم مضى..

حـين التقينـا، جمعتنـا النقمـة، كانـت سـاخطة وكارهة، ولكنني لم أتساءل لماذا تكره الوجود والحياة امرأة؟!..

كانت كثيرة النقيق كضفادع المستنقعات، والحنق الملموس لم يعد خفياً وهو يفسد جمالها الضاحك بطفولة مشرقة، وحين تتململ من حر أو برد، سينتشر في الفضاء مشاعر مريعة، تروي حكايات مقرفة عن حياة ليس فيها أي لحظة استقرار، ففي كل لحظة سخط سيصنع القدر كاملاً من الشقاء.

كانت جميلة للغاية، جميلة أكثر بكثير من غزلان الصحارى، ولكن المفارقة التي لا تفارقني على الدوام، هو في هروبها النفسي عن طريق العمل المنزلي المضني، أحس

بها تعذب نفسها بمشقة وإجهاد ، من أجل أن تستنزف طاقتها المدمرة ، لا تحب الفراغ أبداً ، شقية من بداية صحوتها ، لا توفر من يومها سوى بعض الدقائق التي تستعد فيها للنوم، وتكره بوضوح أن تنام وحيدة.

حين تنحني وتتمايل على مجرد الفراغ، يصير الفراغ ممتلئاً ومثيراً للغاية ، فكل ما حولها يصبح محسوداً بل ومرصوداً بكل عناية ، أتراها تجسد قوس دائرة عظيمة ، فهل سأكون وترها المقابل، لا شيء أكيد أبداً ، أرجو أن لا أكون مجرد مماس لانهائي في الفراغ ...

قد أكون حراً..، بل وقادراً على اتخاذ القرار المناسب، لأسلوب حياتي القادمة ، في مطلع أيام شبابي ، ولكن شيئاً من الكهولة والشيخوخة الموروثة بشكل ساذج، منعني من التصرف بشكل صحيح، بل وأعماني ، كي أكون دقيقاً ، فالجمال موجود في كل مكان من هذا العالم، فلماذا استسلمت لامرأة ساقطة ، بل وحاملة لكل غضب هذا العالم ، وكنت أعتقد بنفسي أنني كما هي، فالطيور على أشكالها تقع.. وكان الأمر مجرد خدعة.

أنا من أكون هذا قد لا يهم أبداً؟.، أنا الآن مجرد كائن حي وسط الصحراء الكبرى و لن أصدق أبداً ، أنني ضائع بين هذه الكثبان الرملية الوديعة..

لقد ضعت ذات مرة بين أمواج نهر الفرات وكدت أغرق وأموت نهائياً وللأبد ، أيام كان النهر يفيض بقوة البحر الهائج، والآن سأضيع وسط الصحراء القفر؟!.. يا ويلاه .. يا ويلاه..

من الصحراء إلى الصحراء؟!.. من العجاج إلى العجاج..!..

كل ما يمكن له أن يحدث، كان قد حدث!..

هل أنا أخاف ولكن من المؤكد أنني أحب، أنا أكره حقيقة، أم ماذا؟ هل مثلي يكره كل شيء، هل أكره حقاً مجرد حقيقة وجودي؟ أم ماذا؟!..

أسئلة لانهاية لها تلاحقني في كل لحظة، يبدو أنني قد وقعت ضحية لنفسي، بحيث لابد من أن أظلم نفسي من الآن وصاعداً..

لا منطق، أبداً لا يوجد منطق؟!.. سأكون صارماً مع نفسي إن بقيت حياً..

لا منطـق مـع المـوت القـادم حقـاً، فهـل يوجـد منطـق للموت؟!..

قطعـاً لا يوجـد أي منطـق.. مـن المـضحك حقـاً الـكـلام عـن وجـود مجـرد منطـق. تسلـسل منطقـي..، الحيـاة هـي الحياة، متصلة كانت أو متقطعة فلن يكون فيها شيء من المنطق..

أخيراً ضعت وسط الصحراء الكبرى..

أنا أضيع!!.. لماذا أضيع؟!.

أنا الآن مجرد كائن حي وسط الصحراء الكبرى،

لن أصدق أبداً، أنني ضائع يبن هـذه الكثبـان الرملية الوديعة..

أخـاف وأحـب وأكـره؟!.. ولأنـني حقيقـة سـأتوحد بعـد عـدة أسـابيع مـع الكثبـان الرمليـة النقيـة، سـتطمرني حتـى أجف ثم تنثرني خفيفا مع رمالها الناعمة..

لمـاذا تـدعوني بكـل رفـق لأن أعـترف.. كـأن في الاعتراف غسلاً للجسد وتطهيراً له،

سيكون الاعتراف ذاته بلانهاية، كالصحراء المترامية بلا نهاية..

شيء يدعوني للكلام بصوت مسموع..

حسناً أيتها الصحراء، إذا كلمتك .بمزامير الرثاء..؟!.
فهل ستردين علي بالعويل؟!.

لست غريباً عنك أيتها الصحراء الكبرى، فأنا من شبه الجزيرة العربية، فنحن جيران، أتمنى عليك أن تحسني ضيافتي، ريثما تمر قافلتي وتصل نحو الواحة، أم أنك لا تقدمين الأمان لمن يضيع وهو يركب سيارة، هل من الضروري أن تبحر القافلة بسفينة الجمل لتعبر سالمة ؟..

أيتها الصحراء الكبرى إن عجاج رمالك الذهبية قد ملأ عيوني، في كل عام مضى من طفولتي، وعلى ضفاف نهر الفرات، تثورين صيفاً بعد ثورة الفرات، فترسلين كثبان رمال تطاول عنان السماء، فتردين على فيضان الماء برمال تغتسل في بحر الفرات، فهل تعدينني بأن تعيديني مع عجاج الصيف المقبل..؟..

لن أقدر على احتمال بؤسي المعتق، لذلك فقد قررت الانفلات على الحياة الحرة، وهي حياة للأوغاد، وهي حياة مليئة بالعقد المتفجرة، من اللحم والشحم، ولكنها حية

للغايـة، ولكنني مجـرد شـخص عـادي للغايـة، منطـو علـى نفسـه، غير متشوق أو مندفع نحو حقيقة ما؟!.

أسـود ثم ابيض خـاطف، ثـم الظـلام الـدامس، والمـرارة المرة سيعقبها الحـلاوة الزائدة، فهنـاك نقلة سـريعة ومريعـة، حولـت الـشـاب الغفـلان إلى عجـوز يقظـان، فمـن يقـدر علـى تحويل الهزيمة إلى نصر؟!..

بدون معنى بل وبدون منطق وحتى أدنى مبرر؟!...

....

(٤)

أشـرقت شمـس يـوم جديـد، و مـازال يـسكنني خـوف خفـي، أدور حـول الـسيارة ولا أبتعـد عنهـا، فالـسيارة هـي ملجأي الوحيد في هذا الفراغ الكبير، لـذا قـررت أن أخـرج مـن هـذا الخـدر الكـبير، تمـشيت قلـيلا بـين الكثبـان الرملية، فلم أبتعـد كثيراً، ثـم عـدت للجلوس علـى مقدمـة السيارة، وكأنني أقف على طريق عـام، منتظـراً قـدوم مـن يساعدني على تصليح عطل ما أصابني منذ سويعات ..

لم أكن في يوم من الأيام، من هؤلاء الذين يخاطرون بحياتهم لتحقيق أي اكتشاف، كما يفعل بعض المغامرين مجازفين بحياتهم ومستمتعين بالعيش وسط المخاطر، فيشربونها كالماء، وذلك بالرغم من كون الصيد المتوقع هزيل، وربما لاشيء أمام الإعياء الذي يتناساه المغامر أمام المخاطر، أما أنا، فقد عشت هكذا على التساهيل، منطوياً مثل طفل صغير، بين تجاويف المجاهيل، من قال وقيل، ربما كنت قد عشت على محيط الخطر، بالقرب من شواطئه الآمنة، حذراً كنت أحيا وأعيش؟..

على الرغم من حذري الشديد، فقد وقعت في لجة الخطر، وضعت ولم أصدق بعد أن أخشى ما كنت أخشاه قد وقع لي، فأصبحت أعيش كألهية بين كذبتين كبيرتين، أحداهما تقول بصوت عجوز مشئوم: ستموت والأخرى تتغنج بصوت أنثوي شاب وضاحك: لا أبداً، ستعيش.

لم يفارقني السؤال اللعين : هل هذا معقول؟!..

لا منطق ولامعقول أبداً، فهاهي الحياة، التي ستتعالى على كل ما هو مجرد فكرة، أو حلم أومجرد رغبة أو أمنية

عندما يكون المرء مهدداً بالضياع، وأين ؟.. في الصحراء الكبرى!..

ما احتمال أن ينجو الإنسان الضائع،حين يبدو مندساً بين الكثبان الرملية، تحجبه أسوارها العالية حيث لا طير يطير، أو بشر يسير، سيكون هذا الإنسان مثله مثل أي حيوان ظريف، وحيد في نوعه، تهدده صورة الانقراض وسط العواصف الرملية، وهي رياح تعيد رسم تضاريس المكان على هواها، تماماً كما يفعل مخرج المسرحية، بين فصل وآخر، حين يغير الديكور في المشهد، وفقاً لمتطلبات المكان، ومهما يكن شكل العمل الدرامي بسيطاً ومتواضعاً، فإنه لن يكون ببساطة الإخراج الصحراوي، من ذهبية الرمال، وزرقة السماء، ثم الجفاف والعطش..

هل توجد مدن ضائعة وسط الصحارى؟

الرمال الناعمة والتي تتماوج مع أقل الأنسام، تتحرك ملتوية بخفة الثعابين، لا ينبعث منها أي صوت أو لحن، كخرير المياه أو حفيف الأشجار، لاشيء سوى مشهد يتحرك بصمت غريب، صمت أخفض من السكون في المقابر المهجورة .

للصحاري بوابات نائية على مد النظر، هي مجرد متاهات يصنعها السراب سدوماً لانهاية لها، فالسراب البعيد مجرد خيالات للماء، أوهام بل وصور سلبية عن الغمام، وهي تتمارى وتتراقص في إغواء، وهي تعلق الثياب الداخلية للحسناوات والجميلات، ولكن على مشاجب الهواء.

نعم هناك مدن ضائعة، ولكن الفارق بين ضياع إنسان وضياع مدينة، هو بالموت عطشاً، فحين يضيع أحدنا فإنه لن يجد شربة ماء، بينما المدن الضائعة وسط الصحراء الكبرى لا تشعر بخطر الضياع، لأنها نشأت وترعرعت حول واحة ماء..

في كل مرة، تتدهور الأوضاع، فالظروف تمضي، من سيء لأسوأ، لماذا؟!..

أعتقد أن لاحظ لي ولاحظوه، وكأن لعنة دورية تلاحقني، من مكان لآخر، فما أن أحط رحالي في بلد ما، من هذا المدعو ب (العالم العربي)، وما أن أشعر ببداية الميل للاستقرار، حتى تعصف ظروف تحول دون بقائي، فتجبرني على مغادرته غصباً، ومنطرداً بشكل تعسفي وكأني كنت أزرع في شطوط الملح.

لم اقـدر ولـو ليـوم واحـد، طيلـة حيـاتي، أن أخطـط شيئاً، وكانت سنوات عمري تنقضي بشكل مفتوح على المجهـول، ولكـنني قـوي، أجـل قـوي للغايـة، فلـم أسمـح لمـشاعر الخـوف الـتي تجتـاح أحلامـي المتفائلـة دومـاً مـن المـستقبل المجهـول أن تقـتلني، رغـم خطورتهـا الحقيقيـة، لأنني تعودت على تحمل قسوة الحياة المتواضعة، بعيداً عن كل أنـواع الرفاهيـة الـتي تميـز العصر الـذي نعيشه، ولقد عشت معظم أيام حياتي، عابر سبيل من بلد لآخر وكأنني مجـرد سـائح فقـير يبحـث عـن المعرفـة، عـن الحقيقـة الـضائعة، عـن الحقيقـة الكلبيـة، أو الديوجينيـة، بـشكل عبثـي، يـوازن بـين العيش كطـائر بـدون جنـاحين فـوق قمـة مسلة، أو في جوف بئر يوسف، وربما في مغارة ابن خلدون... ربما كنت سراب الصحراء نفسه..!.

في ألبوم حياتي صور كثيرة لانتصارات وأفراح خلبيـة، من وحي الأوهام وأحـلام اليقظـة في أحسن الأحـوال، بينما تعشش الخيبـة والهزيمـة الحقيقيـة في أعمـاق نفسي، كما تملأ سقوف الأمكنة المهجورة بلا حيـاة، خيـوط العناكب وأعشاش الخفافيش..

يا إلهي.. هل سأبقى هنا لألف ليلة وليلة؟!.. أحاول تذكر قصصها، فلا أتذكر أي سندباد مر بها، ما أقل حكايات الضياع في الصحراء القفراء، فحيث يكون الربع الخالي، فلن تكون هناك أي حياة، سوى ممالك للجان، يقال إنها تعيش فيها، حيث لا الطير يطير، ولا البشر يسير، لا حيوان أو شجر، وليس من السهل أن تجد فيها حتى الحجر .. لابد من صنع تضاريس واتجاهات.. وضعت البيادين الملونة وفقا لألوانها، ففي الشمال الزرقاء، وفي الجنوب الحمراء.. هذا هو الطريق نحو غدامس.. أما ساحة المدينة العامرة فهو سيارتي لأن فيها كل مقومات الحياة، لقد أصبحت عاجزة، لا تستطيع السير هنا فهي لن تبرح مكانها.

أين أنا؟.. أين أكون؟.. هل حقاً حين ضعت أو تهت في الصحراء كنت ذات يوم في مدينة ما؟...

ما العمل؟.. أشعر بأنني لابد أن أتقبل وضعي الجديد، ينبغي أن أعمل شيئاً ما؟!.. ما هو؟!.. لست أدري ثم تساءلت فجأة؟!..

لماذا أظل أسيراً لمكان وجود الخنزيرة المس مرسيدس، لماذا لا أتركها وأهيم بعيداً عنها؟!..

لماذا لا أسير على قدمي لعدة كيلومترات؟!.

حملت بعض الحجارة وسرت باتجاه الشمال، وعلى بعد مئات الأمتار، وضعتها كعلامة بارزة، ثم عدت إلى الاتجاه المعاكس، فوضعت شاهداً آخر، كي لا أضيع ثانية، عن مركز المدينة الثابت، فأضيع ضياعاً مركباً، وعندها ستكون نهايتي الأكيدة.

....

(٥)

تقع مدينة غدامس الليبية على تخوم الصحراء الكبرى، على بعد عدة أميال من الحدود الجزائرية غرباً، ومع الحدود التونسية جنوباً، وهي مدينة صغيرة نشأت بشكل عصري، بالقرب من الواحة القديمة وبساتين النخيل، التي قامت أصلاً كواحة صحراوية قديمة منذ عشرات العقود، فهجرت قصورها القديمة والشاهقة البنيان، من عدة طبقات، حيث كانت مدينة غدامس القديمة تتكون من عدة أحياء أو حارات، ملتفة على

شكل حذوه حول عين الفرس، فتستمد عوامل بقائها من الماء النادر بالصحراء الكبرى.

حين كنت أجتاز الصحراء الجزائرية الكبرى، لم أكن قادراً على تخيل وجود مدينة، بين كثبان الرمل الهائلة، هذا الشعور ذاته، وهو الشك بوجود أي مدينة كانت وسط طيات الرمل الهائلة التي تقدر على غمر كل مدن العالم، كما يبتلع حوت سمكة صغيرة.

نفس المشاعر والصور راودتني بينما عملت وعشت ولعدة سنوات في مدن مثل بسكرة وورقلة وتيميمون وأدرار وحتى عين صالح و تمانراست، بالجزائر، وكأن الصحراء أصبحت قدري، أم أن العالم من حولي هو مجرد صحارى، حين أكون دائما والآن في الطريق نحو غدامس ليبيا، فالطرقات متآكلة من الجفاف والحر الشديد، والحفر على الطريق كثيرة، ومن حين لآخر ننزل نحن ركاب السيارة، يوحد نفوسنا مشاعر قلق وخوف خفي من ضخامة الصحراء، الخوف من مجاهلها، من الانقطاع في أرض خالية، ومن قصص الموت عطشاً، خشية من الضياع، وتعطل السيارة، ننزل بكل روح رياضية، على أتم الاستعداد، بدون أي شكل من أشكال التململ أو النزق،

لنحمل السيارة لنجتاز حفرة ما ، أو نشرع بإزاحة الكثبان الصغيرة لرمال وقفت كسد صغير تمنع مرور السيارة ، بأيدينا وأرجلنا ، أو نمسك بألواح خشبية متينة لكي تعبر السيارة ، ولتسير كالسلحفاة ببطء شديد ، ما أشبه طرق الصحارى ، بالطرق الجبلية المغمورة بالثلج ، لأن الزحف سيكون بطيئاً ، ولمئات الأميال..

حدث ذلك بالجزائر العاصمة ، أيام كنت أحاول الحياة كصحفي مغمور ، حين اصطحبني أحد أعضاء البرلمان لإجراء مقابلة ما ، مع من لست أدري؟!. فما أهون فعل أي شيء في فنادق فخمة ، ومريحة ، فكل شيء متوفر بعناية تامة ، تضيع ملامح الحياة الصحراوية القاسية وتنمحي حقائقها ، لتتحول إلى مجرد ذكريات..

في يوم من الأيام أجريت مقابلة في فندق السفير مع الحاج موسى آخاموخ ملك الطوارق ، لقد كان الملك كما يسميه الطوارق ، ملكاً حقيقياً ، فقد كان قمة للوطنية المحلية ، غير مكابر ولا متعال ، وكان حينها قد وقف طويلاً عند لقائه بالجنرال ديغول ، لقد وعده إن أراد بأن يكون ملكاً على مملكة بربرية أو أمازيغية تكون له إن أراد ، ولكنه وهو في فرنسا ، أبى ورفض بحزم أن لا

تكـون الـصحراء الـكـبرى ذات معنــى حـين لا تكـون إلا الشراكـة فقط فيما بين العرب والأمازيغ.

أتساءل بصدق: أين الـشراكـة المزعومـة؟!.. هـل توجـد شراكة أصلاً؟!..

أذكـر أن أحد أصدقائي من الأمـازيغ قد قـال لـي ذات مرة، بجدية يخالطها الهزء والسخرية :

- : ياصـديقي، نحـن وفي بلادنـا قـد تحررنـا مـن كـل أشـكال الاسـتعمار، إلا الاسـتعمار العربـي، والـذي لـن يتحقق أبداً إلا بطردهم جميعاً..

- هـدئ اللعبـة قليلا.. قـل غـير ذلـك، (فـنحن والقمـر جيران)..

وقبـل أن تنطبـع في ذهـني صـورة أن أكـون مطـروداً كعادتي في معظم بلدان العالم العربي، أضاف معزياً:

-: أنـت صـديقي، وسـأعمل علـى أن تبقـى هنـا... أنـت فقط.

علقت بطريقة هادئة: - شكراً على حسن انتباهكم.. اتـرك لـي الاختيـار.. هـل تقبـل أنـت العـيش كعـصفور في قفص من ذهب؟!.

عندها ضحك ورفع الكأس منتشياً

:- بصحتك.. صدقني فأنت صديق وفي ..

نشوة عابرة، وأعرف أنها ستتبخر مع أول حرارة صحو، وحتى قبل أن أرتشف فنجان قهوة الصباح، حين يطير السكر وتتبدد الروح المتمردة على الذات ومن عذوبة المذاق اللذيذ لكؤوس المشروب الفرنسي الريكارد، وهو مشروب يشبه الويسكي الاسكوتلاندي ولكنه أكثر سلاسة منه.

من الغريب حقاً!؟. أن يتزاحم بعض الناس على ملكية قارة بأكملها، كما يفعل الأطفال، وينتهي ذلك في صراع مرير، من أجل لاشيء، سوى الضيق الذي في صدورهم، وهم حين سيكبرون، لن يتركوا شيئاً يستحق الندم، لأن الجميع سيخسر، والخسارة عظيمة حقاً، والنتيجة الوحيدة التي ستبقى.. دمار حقيقي على الجميع، لا أحد يبدو فرحاً، لأن الطفولة احترقت بشكل عجيب!..

حكمة الكبار لم تعد نافعة، فقد أفسد الصغار متعة اللعب بأنانية صبيانية، فهم كالجراء النابحة، تجرب

أنيابها بقسوة بالغة، ليتها كانت تحاور أو تتكلم، إنها تنبح بدون انقطاع .

قيل إنه، في الشعوب المتخلفة، إذا تصادف ثلاثة من الناس حول نبع ماء غزير، فإنهم سيصنعون ازدحاماً، وقد يتدافعون بلجاجة ويصطخبون، رغم أن الفراغ كبير ولا يدعو إلى الفجع.

كانت خطواتي تغرق بالرمل، حين كنت أحاول الصعود إلى أعلى كثيب رملي، شاهق العلو كجبل ناعم القوام، ولم يفارقني الشعور مطلقاً بأنني أتلمس أكبر ثدي امرأة في العالم، وفي كل لحظة أتقدم خطوة.. وأغرق نفسي وألقي بها في حضن ناعم وطري.

تذكرت رباط بالمغرب، وساعات أمضيتها بالكتبية، كنت فيها ساهماً، لا أسمع فيها أو أرى أية (قرقبة)، كنت أشتف كأس الشاي الأخضر المنعنع، بل كنت اسكر من الظلال، وأصوات الطيور..

....

(٦)

حين دخلت المدينة لأول مرة، وجدتها عصرية ولكنها مبعثرة، لعله من حسن الحظ أن أجد في هذا المكان النائي مجرد فندق، الفندق الوحيد هو فندق عين الفرس بالقرب من الواحة التاريخية العتيقة، والتي كتب عنها بعض الكتب لعدة مستشرقين ورحالة، صوروا فيها أجمل لحظات تاريخ الواحة بالقول: مدينة عريقة ومن قبل التاريخ، لا تتمتع بأعقد أنظمة الري فيها فحسب، بل وكان في يوم من الأيام يتم تداول كيلو الذهب الأفريقي بكيلو الملح، كل ذلك حفاظاً على حياة الكائنات الحية من الماعز والجمال، كانت الواحة تقع وسط غابة نخيل يخيم عليها هدوء رهيب ، كانت الجدران على طول الطريق مبنية، من الطين والرماد الذي يحل محل الاسمنت، ومزينة بمعينات من الجبس الأبيض، كانت ظلال الأشجار السامقة مظلمة، ذات حفيف، ومن حين لآخر تتساقط من أغصان الجريد حبات من التمر الكستنائي اللون، وهو تمر جاف،

متخشب ومجرد ألياف حلوة الطعم، ولكنها تصبح سهلة التناول إذا وضعت في الماء .

كان الحاج الطاهر، يملأ صالة الفندق بطلعته السمراء، مهيباً ببرنسه الأسود، وبدلته الزرقاء الأنيقة، يدور في فلكه الهادئ ثلة من الحسان العاملات المغاربيات الشابات، رهن إشارته، إنه كما يبدو، مدير فندق عين الفرس الصحراوي، لقد كان بسيطاً ومتواضعاً للغاية، وكأنه كان قد أدرك بشكل مبكر للغاية، أن كل رفاهية مصطنعة لابد أن تزول عن قريب، ولكن لابد له من التشبث بتلك اللحظات حتى الرمق الأخير، حتى وإن كانت عابرة .

حين التقيت بالحاج سي الطاهر للمرة الأولى، كان يرتدي زيا ليبيا تقليديا، يغطي رأسه بقبعة صوفية خضراء، تتدلى منها خصلة خيوط من الألوان المزركشة، ومع أبهة البرنس الفاخر بدا وكأنه يستعد للصلاة في أقرب جامع، كان يرتشف قهوة المساء، و كان قد صحا من النوم قريباً، التفت نحوي مرحباً وبكل هدوء وبدون تكلف مصطنع سألني:

- هل كنت تعمل مدرساً بالجزائر ؟

أحبت بالإيجاب، ولم أخف مشاعر الدهشة .

- ماذا تدرس ؟..

وضعت جواز السفر في جيبي أجبت : - الرياضيات..

على الفور قال مشجعاً: - المدينة بحاجة إليك، لماذا لا تعمل في مدينتنا؟.

أفرحتني دعوته فرددت عليه مسروراً

- ثق يا حاج، إن وجدت عملاً هنا فسأبقى..

ثم سألني محاولاً إخفاء ابتسامة طريفة:

- : ترى لو طلبوا منك العمل بالدينار الليبي وليس بالدولار، هل ستقبل؟!..

حين أجبته بالحكمة العربية: - من ساواك بنفسه فما ظلم..

ضحك وقد نهض من مكانه، وشرع يتصل على الفور بأمين اللجنة الشعبية للتربية والتعليم، وبكل هدوء التفت إلي بعدما أنهى المكالمة، وقال

-: إنه ينتظرك غداً في منتصف النهار.

لقد وصلت للتو، لم أصدق أني سأصل إلى أي مدينة كانت، أو حتى مجرد محطة للمسافرين.. وهاأنا ذا الآن أجد نفسي مدعواً للعمل في مكان لم أتعرف عليه بعد ..

لم يخفِ عني أبداً حقيقة دعوته لي كي أعمل هنا، حين قال دون أن يخفي مشاعر الرضا ..

- هل تعلم بأنك ستكون مدرساً لابني.. ففي هذا اليوم بالذات سمعت ابني يشكو من عدم وجود أستاذ الرياضيات، لأنه انتقل ليكون أمينا للجنة الشعبية..

ثم علق مازحاً :- أنت الآن في ضيافتي

ثم قال لمساعديه ـ انقلوه لغرفة الضيوف..

حملت أغراضي إلى غرفة جميلة وحديثة، تنيرها ثريا قديمة وفاخرة تطل على بركة ماء، وسط غابة نخيل خضراء، شديدة الظلال، وذات ساحة كبيرة مربعة الشكل وأرضيتها المبلطة مغمورة كحصى النهر، ولكن من حبات التمر الناضجة، وكان يطل عليها بشكل ساحر أزهار الختمية من مختلف الألوان وأضواء مصابيح كسولة ناعسة، تبعث في المكان روح الخدر والنعاس،

روحي المتوترة من عناء السفر نحو المجهول، فرغم المكان الجديد والغريب أعجز من يطفئ في نفسي نار الفضول؟!.

نعم، لقد مرت الأيام وكنت حقاً مدرساً لابنه، حيث كان الحاج الطاهر يمر علي ناعساً، وواثقاً، ومطمئناً بأنني صلة وصل حقيقي بينه وبين ابنه البكر أمين، ليكون ناجحاً وللبيوت أسرار، بل جدران عزلاء، وصدري كان بئراً غائراً.. لقد كان الابن يكره كل سيرة أبيه، ويرفض بقوة أن يحقق أي أمل من آماله وطموحاته، فقد كان يستطيع الاعتماد على نفسه، وقد برهن على ذلك أكثر من مرة، لذا فقد لجأ إلى التظاهر بالضعف، ليجبر والده على العناية به، والخوف عليه، كي يبرر إخفاقه في تحقيق غايات والده، لقد رسم لنفسه أهدافاً أخرى فما هي تلك الأهداف؟!..

كان والده العقيد الحاج سي الطاهر، قد طلق والدته وتزوج بأخرى، ورغم تدليله له، فقد ظل أمين متعلقاً بأمه، يحمل الضغينة والحقد في قلبه على والده، بينما لم يشعر الأب تجاه ابنه بأي مشاعر خاصة، ولو قلت له ذلك فلن يصدق مطلقاً، لأنه صارم في شخصيته، جدي ونظامي.

كان أمين واثقاً من نفسه كثيراً، فهو كما يعتقد يستطيع النجاح وقتما يشاء، ولكنه لا يريد لوالده أن يشعر ولو بلحظة فرح، ولذلك فهو يحس بأن أي لحظة نجاح له لن تكون سوى لحظة إخفاق.

لقد نشأت بيني وأبيه الطاهر صداقة، فيها الكثير من التقدير والاحترام، ولكنني غير مستعد لهز كيانه، ومواجهته بتلك الحقيقة المؤلمة، لا، لن تصدر مني أبداً، فكل جهودي ضاعت سدى، وأنا أحاول ثني الابن عن خيانة أبيه، فقد عبرت لأمين كصديق صغير، بأنه يقوم بدور لن ترضاه حتى أمه المطلقة منذ أكثر من عقد من الزمن، وقد أصبح لها الأخرى زوج وأولاد، فالدور صغير ولا يليق به أن ينتقم من أبيه، لقد انطوت تلك الصفحة ومن الخير له أن يكبر وينسى ويتسامح.

....

(٧)

الوحشة من حولي تزداد، رغم أن المكان لم يكن كذلك، فمسكني سيارة حديثة، وفيها كل وسائل الراحة، وإن كل ما يلزمني الآن هو أن تسير السيارة على الطريق، على مجرد طريق، ولكن أين هو الطريق؟!..

يا ويلاه يا حاج الطاهر.. ماذا صنعت بي؟. لقد قذفتني في جوف الصحراء؟..

إنني الآن أسير، أسير كضيف على الصحراء الكبرى، رهينة أم وديعة، هل ستنفرج علي وأعود للحياة ثانية، أم أعود للموت ثانية؟!..

حين التقيت به، لم يكن يفرق حقاً بين الرشفة الأولى والأخيرة، ومن ثم الموت الأخير.. ثمة سرعة ستنهب الرمال وتسير فوق الرمال كما تمخر السفن عبر أمواج البحار..

كنت أدوس بقوة بالغة، والبنزين لم يقدر على التجاوب معي، وأذكر أنني قفلت عداد السرعة لعدة

دقـائق، حـين الـدقائق القليلـة مـرت كالـساعات، وأخـيراً اختنقـت، حـين لم أقـدر علـى اللحـاق بالـسهام الخاطفـة كـالبرق، فأمـامي زوابـع رمـل كثيـف يحجـب كـل رؤيـا ، ولكنني لن أنسى أبداً درجة انحراف سيارتي وسط الزوابع الرملية ، ثم فجأة وجدت نفسي ضائعاً وسط رمال مجهولة ..كانت اللحظات تمر ببطء شديد ، أترقب مندهشاً ، أن تستقر الرمال، كنت أنظر إلى الفضاء الرملي الهائل الذي غرقت فيه، ضغطت بقوة على زامور السيارة، أطلب فيها النجدة، وحين نزلت من السيارة صرت اركض في كل الاتجاهات وكأنني غريق يجدف بقوة كي لا يغرق، وأين في فراغ رملي كبير؟.. فلن تشق جيش من السيوف الضاربة هذا الكثيب الرملي العملاق.

ليس من حقي أبداً لوم سي الطاهر، فكل عاداتي كانـت سـيئة للغايـة ،والمطلوب الآن أن أتـصرف كقائـد لمعركة خارج التاريخ، وأن أخرج منتصراً..

ثمة صوت مغمور، لو كان يجرب حظه بالقول:

-: لا تكن مجرد شخص تتحكم به عاداته، تصرف بحرية، كـن رجـلاً، تـصرف كقائـد حقيقـي، لا حيـاة

للهناءة والدعة، ما لم تكن قائداً، غامر بل جدد وادخل في عمق المستحيل.

كل النوافذ مشرعة على موتي الأخير، وسأنقضي عما قريب.. هل كان لي ذات يوم أسرة ما ؟!.. أشك بكل تاريخي الماضي، ربما كان كل ما مضى من حياتي، مجرد وهم، والحياة نفسها مجرد حلم أو خيال ورسم، وقد يحدث ذلك من شدة الهم والغم.. لا لن أعتاد على شيء مهما كان عظيماً أو جميلاً..

إن المغامرة والتجديد بل والدخول في عمق المجهول أجمل بكثير من المعلوم المعتاد، فالنهاية لن تكون بدون بداية، ومن القرف أن لا تتناسب البداية مع النهاية الموعودة..

الطريق نحو الصحراء الكبرى، ليس طريقاً بين القارات فحسب، ثمة شيء يفوق الواقع الذي تعودنا عليه، ولسنوات طويلة، من خلال الصوت الوديع الذي يغني:

بين عبق الياسمين، وملاسة سيقان الحور، وطرقات العود وسكرة العنب المعتق، وظلمة الشجر، وهناءة الليالي بين الشجر والقدر، كان كل شيء بالبساطة يمر.

الإغفاء يتم من سحر القمر، ومن الجمال والسمر؟!...

لست أسير على طريق معتادة، لأنني الآن اهتز وأصعد ثم أهبط في حفر مقيتة، ثم تتوقف السيارة في نهار ساطع أو ليل مظلم بلا ضوء قمر، لتعبر بضعة أمتار على طريق مهمل وقاس للغاية، حيث لا حياة ولا بشرية.

فالطبيعة قاسية، في السهل والجبل والبحر، وهي أكثر قسوة حتماً في الصحراء..

لماذا مررت بهذه الصحراء الفظيعة ذات يوم؟!.. بل لماذا أصبحت رهينة لها بمحض إرادتي، كان الجو صيفياً حاراً للغاية، والعطش شديد، وبرغم أن العظام البشرية لا تتحل بسهولة، وتتفتت أملاحها بسهولة، إلا أن الماء والرطوبة، وقليلاً من الندى ضروري لبقاء الإنسان أو الحيوان على قيد الحركة.

من الطريق الطويل نحو مدينة ما في الصحراء الكبرى، أيقنت بشكل قاطع أن لا مدينة ستوجد ذات ساعة على الإطلاق، إنها مجرد كذبة، وإن وجدت فستكون مجرد محطة، ومحطة أكبر قليلاً مما صادفته على الطريق، من مجرد خيمة، كل ما فيها يعبر عن

العيش البدائي، ومن حين لآخر كنت أقاوم الجفاف من العطش بجرعة ماء ..حيث يتحد الضياء الساطع والحارق، بالرمال الجافة، والسماء الزرقاء الصافية والتي تتماوج في رقص مخادع كالسراب ..

الحياة في الصحراء الكبرى ممكنة، نعم ممكنة، لكن بين واحات النخيل، وآبار المياه، فقد تكون مجهدة للغاية ولكن وجود بشر من حولك يعانون كما تعاني، أو يحسون بك وتحس بهم، الأمر الذي لا يجعلك وحيداً أمام الطبيعة القاهرة للصحراء الكبرى.

الحياة في الصحراء ستبقى على الدوام، بعيداً عن الحياة الحديثة، بسيطة وبائسة، هادئة أكثر مما ينبغي، غير معاصرة، رغم أن التطور كان قد حول العالم كله إلى قرية كونية ؟!..

هل توجد في هذه الصحراء الشاسعة حياة؟!.

هل ا لحياة في النهاية مجرد صحراء؟ رمال ورياح وسماء؟ أم أن الصحراء هي نقطة بداية الحياة.. تبدأ من نقطة ماء ومن ثم تليها لحظة اخضرار.. لابد من التلافيف من البسيط إلى المعقد، لتكون الحياة الراهنة، مزيجاً

غريباً من السماء العالية والمتواضعة والرمل السفلي المغرور، فما هي لغة الأرض والسماء ؟!..

هناك في العمق البعيد، حين تلتحم السماء الزرقاء الصافية، مع الرمال الذهبية الصفراء، ثم جوقة تتراقص بكل حرية، فهي تتحول كرسوم غامضة، يصنعها البرق والرعد في ليلة دامسة الظلام، .. كل شيء يتراقص كالأشباح والخيالات الناعسة، ورغم الهدوء التام فقد كان كل شيء يتحرك ..فإذا كان المحيط بي يتماوج ببطء شديد، فسيكون زمني الشعوري أشد بطئاً، ولذا سأحس به، لاشيء يستطيع خداعي أبداً..

أتساءل، عن قصتي المدهشة، فقد لا تكون كذلك عندما يقرأها غيري من الناس، كما كانت الصحراء القفر خالية من الناس، إلا من جسمي وروحي وربما عقلي، في وحدة ملؤها الشك، والحنين للعودة، كخلية منعزلة لا يمكنها العيش بعيداً عن حضن النسيج البشري.

مرة سألت نفسي، لماذا أنا أسير واقفاً على قدمي، وكنت أثناءها مغبراً، كحيوان فعال حيوي للغاية وسط الكثبان الرملية..

حينها أجبت بهدوء بالغ: لأنه كان قد وجد من الناس والأهل في طفولتي، الذين كان يهمهم أن أتعلم المشي، ولذلك صرت أمشي ..

لقد فهمت من تعليمهم لي أشياء كثيرة، ليس أقلها أن يسير البشر على أقدامهم فحسب، وذلك لأن من سيحمل نفسه، سيحمل غيره، ولكي يبقى التحميل مستمراً إلى مالا نهاية ..

ومرة اشتممت عطراً فواحاً، ينعشني من حين لآخر، فأغب منه وأملأ صدري، والغريب أن فضولي لم يتحرك بسهولة، وفجأة ألححت بالسؤال على كل من أعرفه، ما تلك الرائحة؟!.

لم أحصل على الجواب بسهولة أبداً، فالروائح متنوعة، فكل يشتم وفقاً لنقاء صدره وخياشيمه، إلى أن ضحك أحدهم واثقاً من نفسه، ذات ليلة من ليالي الصيف المقمرة، وراح يهتف متعجباً:

-: هذه الرائحة آتية من جيرانك، من صديقك الذي يضحك دوماً..

وحين سالت من هو؟

جاءني الرد اللائم

-: إنه صديقك المدير محمد البخاري .

حين ضحكت من نفسي، ومن تذكر ضحكاته، أضاف قائلا: - إنها شجرة الحناء العتيقة..

وللمرة الأولى رحت أتساءل عن علاقة الوشم بالحناء الترابية الزكية، بالشجرة الخضراء، المجاورة لنا، فعند ذاك طلب مني أن نخرج سوية للجلوس تحت الشجرة، وبالفعل كانت شجرة الحناء تجود بعطر أخاذ، يهب من حين لآخر عبقاً، كما لو كانت رشات رذاذ ماء منعش .

قلت لنفسي، إذا عدت إلى الحياة ثانية، فسأجعل من منزلي بستاناً، من أشجار الحناء، لأعيش في قنينة عطرها الفواح، الذي لم أر له مثيلاً، نعم .. أيام الطفولة بالقرب من نهر الفرات، كنت أنام تحت شجيرات الزيزفون، في ظهيرة يوم صيفي حار، فكان عطر ها ينعشني، يهدهدني، يلضم عيوني بخيوط النعاس، فيغلبني النوم، وحين أصحو ممتلئاً من سحر تلك الهنيهة العطرة، وكأنني العريس تزف إلى سمعه هلاهيل عرسه.

....

(٨)

وقت الظهيرة تشتد القسوة، فالسيارة لن تجد شجرة تظللها، ولا سقفاً يغطيها، فكل شيء هنا عار ومكشوف وتحت الشمس الساطعة بقوة، وليس من ظل .. صرت أتمدد من حين لآخر تحت السيارة، ولذلك صرت أحفظ كل تلافيف السيارة من الأسفل؟!..

نحن الآن في أفريقيا، في الصحراء الكبرى، حيث ينفصل الشمال الأفريقي عن جنوبه بقسوة بالغة، من الامتداد الشاسع للكثبان الرملية المتحركة، والجبال النارية الصماء، تلمع حيناً كنيران الذهب المذاب، أو كالزئبق الأحمر، ولكنها سرعان ما تتأثر من خبايا موت الحياة وبقايا أشجار كانت قد تفحمت منذ قرون، ومن النادر أن تجد فيها بقايا حياة عضوية، فسرعان ما تتحول عظام الحيوانات إلى أملاح ومن ثم إلى رمال، فالحرارة الشديدة، والبرد الجاف، السائد في مناخ الصحراء

الكبرى، لا يقوى على احتماله سوى الصخور والرمال والسراب ..ما الفرق بين الإنسان والحيوان؟!..

لست أتحدث بلغة صارمة داروينية، جادة وعلمية، عن أصل الأحياء، ولكنني في هذه القصة بالذات كنت حقاً أسيراً، بين الخروف الأبيض الناصع بصوفه، وقرونه النامية السوداء، والذي سيتحول بعد عدة سنوات إلى كبش نطاح يقود نعاج الأمة نحو المسلخ والغمة، بكل جدية وروح همة، فهو يتمتع بنياشينه وأجراسه، يخدم بكل إخلاص وروعة، بل ويعبر عن استعداده للتضحية بلحمه من أجل رغبة الإنسان بالتواصل مع الإله العظيم ..

أذكر فيما مضى أنني كنت قد وصلت للمعهد، وعند الباب وجدت الخروف يثغو ويتوسل، ولن أنسى ضحكات المعلمين والمعلمات، الأمر الذي اضطرني للرجوع إلى المنزل، لربطه من جديد، وبشكل صارم لكي لا يلحقني أبداً، لأني مشغول عنه، بل ولا أستطيع مباراته أو مجاراته، حيث يحب أن يجري، ويلعب، مع من يحب، ويثق به حتى الأضحية والموت ..

لماذا قبلت نصيحة صديقي المهندس مصطفى القاسمي؟!.

عيد الأضحى أو عيد الخروف، بعد شهرين أو يزيد، فلماذا بكرت بشراء خروف أبيض كالثلج قبل الأوان؟!. فإذا كان هو الأضحية المقبلة، فلماذا سمحت لنفسي أن أحبه وأرعاه، وأن يتعود علي راعياً له ثم أسمح لنفسي بالكذب عليه؟!.. من العار أن أكذب على من يحبني وأحبه ..أنا متأسف للغاية من هذا الخروف المخلص، فقد ربط روحه بروحي، بل عشق وجوده بوجودي، فإن نمت نام، وإن نهضت نهض، وحتى إن ركضت ركض معي، وإن جلست جلس، وحين يراني آكل طعامي يروح يجتر ما حوله بحماسة ظاهرة..

كانت أكثر اللحظات إثارة له حين أذهب للعمل، حين يثور غاضباً، وكأنني سأفارقه للأبد، وقد لا أعود إليه، هذا ما ألاحظه عليه، لأنه يوشك على الانتحار محاولاً التنصل من الحبال التي توثق عنقه بشكل خانق ..

ثم قلت لنفسي: إن روحك المخلصة أغلى علي من لحمك الشهي، وإن بقيت تتصرف على النحو العاطفي، فسأحرم على نفسي أكل لحمك الشهي ..

لم يصطلح مع أحد، حتى مع زوجتي التي أحبته من اللحظة الأولى من لقائه، ولم ينفعها الصراخ:

-: يا إلهي كم هذا الخروف وديع وجميل!.. لم أر في بياض صوفه الثلجي حيواناً بمثل نصاعته ..

ثم راحت تتساءل ببلاهة:

-: لماذا هو متعلق بك إلى هذا الحد؟!.

رددت عليها صارخاً ومحتجاً:

-: لأنك تأخرت كثيراً.. لقد كان يبحث عن أم، فلم يجد أحداً غيري، فتوهمني مكانك، ولأننا كنا وحيدين فقد تعلق بي، لعله يفهم الآن ؟..

لم يمض سوى أسبوع على وصول زوجتي، قادمة من الجزائر، ولا زلت اذكر لحظات وصولها بشغف كبير، فمن العسير عليها أن تأتي عبر الطريق الصحراوي الفظيع، أكثر من ألف ميل، وتترك أمها؟!. ما أشد تعلقها بأهلها، ويبدو أنهم أنفسهم كانوا قد أجبروها على السفر للقاء زوجها، فجاءت كعادتها سافرة الشعر، وبدا شعرها الأشقر مع الزى الأوروبي الذي ترتدي، كما لو كانت قد جاءت للتو من باريس، وعبر الجو.

ربما كانت على حق، فقد كانت متجهة نحو مدينة غدامس، الواقعة على الحدود بين الجزائر وليبيا، وهي

تعتقد بأن السفر من مدينة لأخرى، في حلة أنيقة يبعث على السعادة والسرور، رغم أنني ألححت كثيراً، في رسائلي إليها، بأن مدينة غدامس، هي واحة خضراء في صحراء قفراء، وقد تحولت حديثاً إلى مدينة عصرية..

الوجوه السمر المحترقة من شمس الصحراء، من الطوارق الأمازيغ أو العرب لا تعني بالنسبة لها شيئاً، فالألوان والأجناس أشياء عادية تماماً، طالما أن الجميع مسلمون، ويفهمون العربية.

كم كنت أستغرب من تكيفها السريع مع البيئة الصحراوية، فسرعان ما وجدت عجوزاً كأمها، وجيراناً كجيرانها، وكأنها كانت قد ولدت في هذا المكان النائي.

لأن أهل الصحراء هم أيضا متمدنون في دواخلهم، الحياة العصرية ليست غريبة عليهم ولكنهم حريصون على عاداتهم وأزيائهم، فلا يقفون كثيراً عند المظاهر، في أن تكون المرأة حاسرة الشعر، أو ترتدي ثياباً مدنية، وتكون صفراء أو شقراء، أو بيضاء، وحتى سمراء أو سوداء، ولكنهم يضمون من كان مسلماً إلى أهاليهم، تصلي

وتـصوم وتتـصدق، وتتـشارك معهـم في قـاموس الأفـراح والأتراح، لست أدري من هو الناجح هنا أنا أم هي؟!.

خلال الأسبوع الفائت حضرت أكثر من عرس، وهـي ترافق العروس وأمها وكأنها أخت للعروس، كانت قد قدمت تواً من بلاد بعيدة..!!.

في كل يوم كنت أراها توشوش حين يحضرون، فاترك المكان لها لكي تنجح في البقاء هنا، لعلها تتفاعل مع هذا المكان، فلم لا نعيش هاهنا في واحة صحراوية وحتى لو كانت تقع في الصحراء الكبرى؟!.. فالمهم بالنسبة لي أن نعيش معاً، فالبشرية لاتهمها أن تنتهي في سهل أو جبل وحتى صحراء، بل وحتى في الفضاء الخارجي البعيد، ففي كل مكان لابد أن يكون فيه زمن حياة ما، كان واحة لي، فليس للإنسان وطن، وسيبقى هكذا وللأبد ..

....

(٩)

لقد تذكرت حقا كل ما جرى معي، لعل في الأمر تقليد عتيق، لأنني أنا بالذات، أنا هو من مارس مثل ذلك في بلادها، في الجزائر، فقد كنت أركض من مكان لآخر، وكانت زوجتي تلحظني، خاطباً لهذا ولذاك، ومدعواً من عرس لآخر، وكانت سيارتي من ماركة مرسيدس غالباً هي من تحمل العروس، بعد أن تزين بشكل جميل، فحين اشتريتها، أهدي إلي عدة عثوق من تمر دجلة نور المنيرة كالمصابيح الحمر ،وعرض علي بعض الجيران مساعدة مادية لكنني رفضت ذلك ممتناً، ولأنني أريد لسيارتي أصلاً أن تكون (فولكس فاكن) أي سيارة شعبية، وإن كانت تحمل اسم (مس مرسيدس) المدللة.

كانت تسألني من هؤلاء فأجيبها ببساطة:

- : هؤلاء أخوتي.. هذا زواق والأخضر وذاك الطيب، والعربي ..

تضحك مني كثيراً، لأن من أعددهم هم أصدقائي بالجزائر العميقة، بينما الوضع مختلف الآن، فثم طرابيش حمر، وخضر وهفهفة جدائل ملونة..

سألتها مرة

-: هل أنت مرتاحة بالعيش هنا وسط الصحراء الكبرى؟!..

أجابت معتبرة ما قلته نصف سؤال، بنصف جواب:

-: (لاباس.. لاباس)

الأمر مثير للغرابة، فمن غير المعقول وأن تكون وفقاً لعادتها وتقاليدها أن تكون مجرد كائن حي هنا، فكل شيء من حولنا يغلي ويفور كالنار، كانت تعيش طيلة السنة بجوار المدفأة، كيف يمكن لها أن تنسى صحبتها الطويلة.

حتى الطعام صار موحداً، فلكل بيئة أطعمتها، فكيف صار ذلك ممكناً، كيف صرنا جزءاً من المكان بكل سهولة ويسر؟!..

لطالما تساءلت وها أنا ذا أتساءل ..

كيف استطاعت زوجتي نسيان آلام الطريق، ومشقة الفراق مع أهلها ، ومن التعب والجوع وحتى العطش، بل وتحمل لهيب السفر عبر الطريق الصحراوي الذي لا ينتهي، أكثر من ألف ميل، أذكر جيداً ذلك الطريق الطويل المقيت غير المعبد ، عبر الصحراء الكبرى، فهي الجفاف، والجفاء، والجفاف يتبعه الجفاف، يا لها من حفر كنت قد اجتزتها ،حين قال بعضهم:

- إنها حفر حقيقية، وفيها لا ترقد النعجة بل وحتى البعير..

أخيراً جاءت... وكما كانوا يتوقعون؟!..

إلا أنا ، فلم أكن أقدر حجم الدهشة من قوم، لا هم بيض، ولا سمر ولازرق، بل ليسوا من أي لون كان، من غير مجرد إنسان، كائناً من كان.

قالت لي محذرة وواثقة:

-: في هذا العيد القادم، ينبغي أن نتخذ الحذر..

وتساءلت بغباء، كيف يمكن أن نحذر وقد تعودنا أن نحيا بأمان؟!..

تفضلي يا سيدتي:

قالت محذرة، وقد فعلت ذلك للمرة الأولى

- : في هذا العام بالذات سنستعد ولو كان ذلك للمرة الأولى..

لم أفهم شيئا مما قالته.

نعم كانت هي التي قالت لي:

- : سيأتي العيد، العيد القادم، عيد الأضحى بعد شهر أو يزيد، فهلا نحاول أن نكون ولو لمرة واحدة، يقظان بما فيه الكفاية، ولانخدع بعد ذلك أبداً..

لم أنتفع أبداً من كل إعلان وحتى من التصريح علناً بأننا مجرد نسمة تداعب نخلة عتيقة وإن لم تمت بعد فوات أكثر من قرن ؟!.. فوق الأرض بعشرات الأمتار، ولكن من غير أجنحة؟!..

الآن اتضح بعض ما أضمرته قبلاً، حين قالت:

- اشترِ لنا كبش العيد..

وحين قلت لها:

- أتقصدين عيد الخروف؟!..

لم تبتسم، ولم تشعر بالمداعبة، فهي في مثل هذه الأمور لا تحب الهزل أبداً،

كل زي أوروبي أو فرنسي، لم يعد له وجود ، فقد عاد كل شيء إلى مكانه، حين ردت بكل بساطة وبلاهة:

-: ما رأيك، فكر جيداً، يجب أن لا نغفل هذه المرة.. في أن لانخدع ولو لمرة واحدة على الأقل...؟!.

قلت كعادتي بالقول مازحاً:- يا لطيف ..لأن نكون مخدوعين كالعادة خيراً من أن نكون مخادعين يا غادة ..

-: صدق أو لا تصدق، فالطبيعة لن تقبل سوى العادات الصحيحة .

حين ابتسمت من غموض عبارتها ، قالت بغضب:

-: لا تنسَ أنك تسخر من كل شيء، وأنت السخرية بعينها..

لم تكن تسمعني أتساءل:- أي عادات صحيحة تقصدين؟!.

لقد مللت من التكرار، من تكرار أن المجد للفقراء، لأنهم مع الحياة ومع الأمثل ..لكن ما لعمل ؟!..

اشتريت الخروف الذي سيكون كبش العيد، بقرونه القوية والحلزونية المدببة، فسيكون كبشا نطاحاً،

واشتريت له عدة كاملة من المعلف والمشرب، وملأت صندوق السيارة بالبرسيم وأكياس الخبز اليابس .

سنقوم بتسمين هذا الغزال، وسندحو بطنه بالأكل حتى يكبر بسرعة، ليكون قرباناً سميناً في عيد الأضحى المبارك.

....

(١٥)

زمن الموت هو زمن الحياة، فالموت والحياة مجرد تيم واحد، هذا ما أنبأتني به الصحراء القفر، واللوحة السرمدية لسراب بعيد، ووحوحة خافتة جداً تشبه إلى حد بعيد موسيقى الكون البعيدة جداً، موسيقى الفضاء الخارجي لإيقاع الأفلاك الراقصة حول الشمس ..

زمن الفراشات الراقصة حول الضوء إلى حد الاحتراق السعيد، زمن مرح وحزين بل ويائس حتى من لحظة هاربة في الحصول على مجرد قطرة سعادة، عن سوى قطرة ماء

تبل اليباس والعطش الرهيب لعالم يحلم بالندى، وبعض البرودة ..

فلتأت يا موتي السعيد، بعيداً عن نشوى الفرات الثمل من الري ...

ليكن موتي في الصحراء الكبرى بأفريقيا شرفاً ومجداً، منقوشاً على صخور الطاسيلي أو على القمم الجبلية الذهبية في تامنراست ...ورحت أردد على مسامعها مقطعاً شعرياً، وكنت أمثل الموقف الشعري، وكانت ترمق المشهد بكل جوارحها.

احميني من الكلاب

قولي لي من خلفك الذئاب

لا تتركيني فريسة

لبلاد ليست بلاد

مجرد سجن وبئر وواد

لأنها ذليلة مستعبدة

تحكمها شريعة الغاب

حين سمعتني أتلمظ بالحروف، وكأنني ارتشف كأس عصير رمان مثلج، انتشت قليلاً، لأنها ككل

حسناء يبهرها بريق الثناء، ولأنها كانت تتمنى أن تكون هي تلك الصورة الموضوعة وسط الكادر وراحت تسأل :

-: من أين تأتي بهذه التعابير الغريبة ؟

أجبتها ساخراً -: من المحفوظات يا سيدتي ..

علقت يائسة من غير أمل:

-: كالعادة، لا تعترف أبداً ..

سأموت عما قريب خارج كل حدود، خارج كل بلاد، فريسة لحقيقة الطبيعة الكونية المرسومة بلا حدود غير حدود النهاية الأخيرة، ولكنها بصدق نهاية مشرفة، فالصحراء وحدها من أوحى الشعر والسحر، والفلسفة عبر النجوم المتهادية، وكتاب الكون المفتوح على الأزل ..

سيارتي الفخمة لم تعد شعبية أبداً، فأين الناس،حيث لا أحد من حولي هاهنا سوى الرمال، وتلك النهود الجميلة الجافة والناعمة الملمس التي ترسمها كالسراب تلك الكثبان الرملية، وهاهي تضيع وسط الغبار الناعم لرمال نظيفة، ونقية..

لم تعد خضراء كعشب السهول الريانة من الندى والمطر الغزير..

كل العالم أصفر، لاشيء غير الأصفر الحسود المحب، البغيض والحقود، بل والموت القادم الذي ينفث حوله عطر الخلود ولكنه يزحلق نحو الفناء العاجل.

إنها الصحراء الكبرى وهي تترامى و تمتد حتى اللانهاية، فإلى متى سأظل أهذي.. ما أصعب الهذيان النفسي، إنه نوع من أنواع الالتهاب والسخونة التي تضرب كالحمى، حيث تنفلت الكلمات والصور، إنني أكتشف في نفسي شخصاً ثرثاراً لا يتوقف عن الهذر، إنني لا أتوقف عن الكلام، وعن تخيل الأفكار والصور الغريبة، كمركبة تسير على طريق مفتوح، لا يواجهها أي عائق، فهي لن تتوقف حتى تستنفذ كل مصادر الطاقة المحركة لها، لقد بدأت أعراض مرضي بالظهور، مع بروز رغباتي بحياة العزلة، وكثرة أحلام اليقظة .

الماء وفير، لقد عدت إلى أيام طفولتي الأولى، فأنا أشرب من ماء مبرد على طريقة الصحراء فثم كيس من الخيش، وهناك رطوبة ماء، وهواء، فالليل بارد، والصباح أبرد، فنحن بالخريف.

لاشيء يقتل العطش، والظمأ الشديد، سوى الشاي المنعنع، فنحن في الصحراء الكبرى، فالزاد فيها ليس

سـوى قطـرة شـاي أخـضر و منعنـع، فالاخـضرار يمنـع الجفاف، والنعنعنة العطرية تقاوم الاختناق .

لم أعد أهتم بالماء، فالمـاء عنـدي كـثير، وقـد لا يجـف دمي أبداً.

لـو كنـت في لحظـة أمـان لـسكبت كـل الـدلاء علـى رأسـي، ولـكـنني محاصـر بالرمـل والجفـاف، ولا يرطـب لحظات وجودي حياً، سوى بعـض ذكريـات، وبقايـا معرفـة هزيلـة، آه لـو كـان بإمكانهـا نجـدتي، لأعـود إلى الحيـاة، من جديد، لقد دخت من الأمنيات.

....

(١١)

كنـت أسـير وسـط سـوق شـعبي وفي الحـي الـذي أسـكنه، وهـو سـوق لا نظـام لـه، يظهـر في فصل الـصيف فقـط، حيـث يمتلئ الرصيف بالخيـام و ترفـرف فيـه أعـلام ورايـات مـن الخيش، وأعـواد القـصب وألـواح مـن الخـشب، كـشكل مـن أشـكال الفوضـى، والـذي لا يليـق بـه أن

يسمى بسوق عرب، انه سوق خطير للغاية، فكل شيء فيه يمكن أن يتطاير مع الريح، وقد تصطدم بعمود أو تجرح من سلك معدني نافر، ناهيك عن فوضى وقوف وخروج السيارات الداخلة أو الخارجة، فالداخل سيبقى حائراً حتى يجد فراغاً ملائماً له، وسيبقى الخارج منه سجيناً حتى يفك أسره، كل هذا في سوق للخضار والفواكه، وسلع شتى.

فجأة صدمتني سيارة ما، مجهولة الهوية، طرت محلقاً في الفضاء كطائر ثم وقعت بشكل عمودي، وكأن صياداً لئيما اصطادني بطلقة نارية حادة،واصطدم رأسي بمقدمتها المربعة البشعة، كانت السيارة مكعبة الشكل ،ذات معدن صلد، وقاس، ففقدت الوعي ولم أشعر بعودتي للحياة من جديد، إلا في المستشفى العام، فمن صورة إشعاعية لأخرى وكأنني نجم مشهور سلطت عليه أضواء الكاميرات.

كانت اللعبة سحرية، من صنع الحواة، لأنني أخرجت من المستشفى بلا شاهد إثبات على كوني ضحية، ضحية حقيقية لعمل إجرامي مقصود، من الألف إلى الياء.

نعم سأتألم كثيراً، ولكن فيما بعد.. سأشكو من كسر حقيقي، كسر عميق في فخذي الأيمن، كلما تقلبت الفصول، وكلما أنجمد الشتاء، وكانت النتيجة أن لاشيء خطير، مجرد شعر بسيط في الفخذ حيث لا لزوم لكل فخذ، فقط عند الوقوف والجري والعمل بدون سبب، ولكنني لن أنسى أبداً ضحكتهم، وقد غادروا نحو المجهول، فمن هم؟ من هو الذي دفع بضعة دنانير قليلة، وتركني أعرج عدة شهور، بل وأتقافز كالكنغر، على عكاز صار عضواً جديداً من كياني؟.

أحد أولادي قال لي ذات يوم:

-: لقد طرت في الفضاء، يا بابا وكأنك الكابتن ماجد في رسوم الأطفال، لقد كنا من حولك ولم ندرك بتاتاً كيف طرت ونحن بقربك؟!.. وكيف نهضت بعد غفوة طويلة؟!.. ولم نصدق أبداً أنك ستعود للحياة ثانية، لقد مت ثم عدت إلى الحياة ثانية وكأن شيئاً لم يكن؟!..

لا، لن يفهم أحدهم ما حدث معي، ففي الأمر سر خطير، حيث لم تمر لحظة أبداً، إلا وكنت أفكر فيها بذلك الهاتف ذات يوم..

-: اسمع، اترك الكتابة أو تموت..

-: من أنت، قل شيئا، أفصح عن نفسك..

-: ....

حتما سأموت ولكن متى وكيف وأين؟!!..

الآن فقط تقررت ساعات موتي أخيراً، في الصحراء الأفريقية الكبرى..

في الكتابة حياة، ولكنها حياة تندفع بجنون نحو الموت السريع، من اللهفة والشوق، وجنون العشق الذي يجري بكل وجد قاتل نحو غزلان الصحارى، فيا لغزلان الصحارى.

لقد طويت صفحة مريرة لا يمكن أن أتابعها سطراً بسطر، أو حتى حرفاً بحرف، فما عاد يلهمني شيء، غير الألم الفظيع، من أجل أن لا يكون هناك موت أخير لكلمات لابد أن تقال، حتى لو كان ذلك على شكل اعترافات في صحراء قفراء، كالصحراء الكبرى، وهي الصحراء الممتدة حتى اللانهاية ...

أذكر ملياً تلك الليلة؟!...

كانت زوجتي تتألم، وتنتحب بشكل قاس فظيع، وكنت عاجزاً أثناءها عن إقناعها بأن ولدها البكر الأول، ليس تائهاً بالصحراء الكبرى، فقد ترك أثاراً تدل على عودته للجبال المخضرة، وللينابيع الباردة، لقد عاد حيث الأوهام التي تركناها، وغداً سيقول الحقيقة ..

كنت أكلمها وكانت تبدو مسحورة وضائعة مثلي الآن بين كثبان الرمال، ومما يؤلمني بل ما لا أتمنى أن تسفح دموعها المدرار على ضياعي في هذه الأيام كما فعلت هي ذات يوم.. مع ابنها الذي تبين فيما بعد أنه هارب ومجرد هارب من الصحراء الكبرى؟!..

لا يهم الآن ماذا ستفعل؟ هي زوجتي وشريكة عمري، أين ستبحث عني في كل ليلة ونهار، لأنني أنا هو الضائع الحقيقي بل والأبدي في عالم غريب، لقد تعودت على كل حالات الضياع والفقدان بل والذهاب من غير رجعة ؟!..

نعم، لقد كانت تتصرف كأم ثكلت بفقدان ولدها، لن ترى شيئاً أو تفهم شيئاً بل ولا تشعر بشيء على الإطلاق ما لم يكن هناك صوت أو رائحة أو ذكر لحروف اسم ابنها الضائع والمفقود، ولذلك باتت تحلم به في كل الليالي بأنه هنا معنا يأكل مما نأكل ولا يشبع

وكأنه من غير أم، إلا أمه، إلى أن تكلم بصوته هو ولا غيره وقال

-: أنا هو يا أمي، اطمئني لقد نجوت حين هربت من الحياة أو الموت وسط الصحراء ...

ضحكت ثم عادت إلى الحياة من جديد، ثم انطلقت، بل وراحت تسبه وتشتمه، وكأنها تحاول إرضائي، عندما شعرت بحق أن ابنها ليس سوى ابن عاق، أناني، يعبد نفسه، ولن يكون له في المستقبل أي مكان مهما كان سطحياً أو مغموراً ..

لم تكن تعلم أبداً أن كل صحراء سترفضه دائماً وأبداً.

كانت تبكي عليه ولا تغفو في نومها أبداً، منتظرة في كل لحظة أن تراه أو تسمع صوته، في كل حركة باهتة قد تحدث، وكنت مرتعباً من منظرها جاثية عند الباب وهي تتخيله وقد طرق الباب أواخر الليل ..وهي تتلمس كالعمياء عود حطب يابس، فتتخيله أخضر، ثم تطلق نشيجاً ناعباً، يهز كياني بأسره .

لـن تـسمعني، ولـن تفهـم أي كلمـة سـأقولها لهـا ، فقـد كـان ينبغي عليها كامرأة تدعي أنهـا أصيلة وحـرة، كمـا تردد ذلك غالباً ، كـان عليها أن تكون على ثقـة تامـة ، بـأن الولد الذي تركها تتقلى على الجمر ، كان قد فقد صلته بأمـه ، وأنـا واثـق تمـام الثقـة أن لا أم في ذاكـرتـه غـير حيـاة الرفاهيـة بعيـداً عـن حيـاة الـصحراء القفـراء ، فالحيـاة فيهـا ليـست قـدراً ، ولا بـأس مـن الـهروب منهـا ، فهـي ليـست الأم أولاً ولا الأب ثانياً ....

....

(١٢)

ما الذي ستفعله الآن ؟!..

لقد صرت حقيقة أنا هـو الـضائع بـين كثبـان الرمـال، أنا لا غير، لقـد كـانـت فراشـة وكنـت الـضياء الـذي تحـوم حولـه ، كيـف أتخيلـها تبكـي حينـاً وتنـدب حظهـا العـاثر ، تلطم خدها ، وكأنني لن أعود إلى حضنها أبداً ..

كيف ستنام وكيف ستحلم، بل وكيف ستتألم بدون حدود سوى البكاء السخيف والسطحي، بدون أي معنى يذكر، لمجرد الأنانية، لمجرد السخافة...

لا أستطيع تصورها مطلقاً ثكلى كما لو كانت قد فقدت ابنها لحظة هرب بطريقة غبية من الصحراء الكبرى، بل وبدون أن يدرك مقدار هذيان أمه وفاجعتها عندما تحس بفقدانه بطريقة غامضة، لقد أصبح الناس بالمدينة الصغيرة، قلقين من سر اختفائه وهو ما لم يحدث في تاريخ حياتهم إلا نادراً، فانطلقت حملة تفتيش كبيرة للأماكن المهجورة، وتقفي الآثار، في صحراء تضيع فيها كل الاتجاهات، ولصعوبة الموقف، فقد شارك في عملية البحث الساحر، وضارب المندل، وقارئ الرمل، وليومين متتاليين، استنفر الكثير، منتظرين سماع خبر جديد، يمكن أن يأتي في أي لحظة، فلو كانت زوجتي قد صدقتني منذ البداية لما كبدت الناس في هذه المدينة الصحراوية الآمنة عناء البحث عنه ..

لقد قلت لها مطمئناً

-: صدقيني، إنه الآن في طريقه إلى الجزائر، وحال وصوله هارباً إلى أخواله، سيتصلون بك، ليطمئنوك على وصوله سالماً..

كان عقلها في إجازة، فعاطفتها القلبية مفجعة،ولم تقل كعادتها: (يا ريت..)، بل ونظرت إلي وكأنني مقصر في البحث عن ولدي،وأجهشت بالنحيب والعويل، ففقدت زمام المبادرة، حين راح الناس يبحثون في كل مكان .. فمن شدة فاجعتها وولولتها لم نعد نعرف ماذا نفعل؟!..

حين هاتفها أخوها من الجزائر، لم تصدقه أبداً، بل وطلبت منه فوراً أن يسمعها صوته، فهي تحفظ بصمة صوته، وحين تكلم معها قليلاً، انفجرت باكية:

- : لماذا تقتلني يا ولدي، ماذا فعلت معك يا بني؟.... لماذا؟.. لماذا؟...

حينها تدخلت بسرعة، وطلبت منهم تركها لترتاح قليلاً ثم فليتحدث معها، من يشاء وبعد ساعات قليلة، حتى تستعيد صوابها، ورحت أسالها بين حين وآخر، بشكل ناقم وساخر:

-: هل سمعت صوته؟

تهز رأسها بالإيجاب وهي تبكي، ثم أعود أسألها : هل تأكدت من أنه هو بالذات؟..

ألححت عليها، ثم صارت تشعر بمرارة الواقع من تكرار الأسئلة، وراحت تجيب على أسئلتي باقتضاب:

-: نعم هو..

-: أكيد؟

-: نعم هو بالذات والصفات ..

بينما اليوم أنا هو زوجها هو المفقود حقيقة، وأين بالصحراء الكبرى.. وإنني أتمنى الموت في هذه الصحراء النظيفة والنقية، والتي أحس فيها بروح الطهارة والقداسة، على أن لا أراها مفجعة على فقداني، كما رأيتها تنهار وتذوب كقالب زبده في جو حار، ليتها تصدق مع نفسها، ولو لمرة واحدة، فأنا نفسي ورغم وجودي عند حواف الموت، فلا أتمنى لنفسي النجاة من أجل العودة إليها، كما لا أتمنى وجودها معي هنا وسط الكثبان الرملية النقية، لأنها إن وجدت هنا، فسيقلق الصمت من قلقلتها الدائمة، وستصير الصحراء الوادعة مسكونة بالفوضى البشرية، كما هز الأرض الثنائي الكوميدي، آدم وحواء، من الخير

لها أن تعترف بصدق، أن القدر قد أنعم عليها بضياعي، ومن أجل العشرة الزوجية المقيتة، أن تتمنى لي الموت الرحيم بين كثبان الرمل، وبأن لا يطول عذابي من الموت عطشاً، لأنها لم تكن تعلم أبداً، أنني حملت معي الزاد لخروفي المخلص، والذي أشعر ودائما أشعر بأنها تكرهه كراهية عمياء، بل وتنتظر بفارغ الصبر حلول العيد قبل أوانه لتفترس لحمه وتتخلص منه، لتتخلص من أوساخه!! ..

-: يا سيدتي ليس في الخروف ما هو وسخ مطلقاً، انه نظيف وأبيض كالثلج ..

وحين تتعلل، أو قل تكذب، وهي تقول:

-: منذ كنت طفلة صغيرة، كنت أكره كل الحيوانات ..

فأرد عليها لمجرد الكلام معلقاً:

-: إذا كان هذا الحيوان وسخاً، فلماذا يجعلونه أضحية مقدسة؟!..

وفي قلبي أقول، إنك لا تكرهين الحيوانات فقط، بل وتكرهين كل الجنس البشري، لماذا ؟..من يدري ؟!.

ثم تتركني ألاعب الخروف الذي يبادلها نفس مشاعر

النفور، دون أن يهتز فيها الضمير، فالعالم كله خطأ، وهي الوحيدة المصيبة فيه، كان خروفي الساذج يطلب مني مرافقته في كل لحظة، ومداعبته واللعب معه فهو يراقبني بدقة بالغة، فإذا تحمست وركضت سبقني بالعدو، وإن جلست جلس، وحين أقف يقف، بينما هي تريدني أن أكون عالماً برغباتها ومفتوناً بغيبها، وعقدها التي لا تحصى، وأن أدور بفلكها كعبد يسبح بحمد ربه، بينما كنت حراً طيلة حياتي، فإن كان لي رب فما حاجته إلي حين أكون ذليلاً.

أن أكون تائهاً في الصحراء الكبرى، أهون علي من أن أحتمل ضجرها، وتأففها القميء، من ضيق حوصلتها، ومن حالة هياج عصابي أعمى وطائش، فأنا هو السبب في كل ما تقوم به من تصرفات هوجاء، فإن كسر صحن أو ألقت بزجاجة عطر ثمين، فتختفي مع كيس القمامة، سأكون أنا المسئول عن ما تفعله من غير وعي، حتى تهدأ العاصفة العصبية الخانقة، ويكف الهدير الغاضب، عندها فقط ستظهر غزالة الصحراء، كحمامة بيضاء، وكأن شيئاً لم يكن، فنبدأ في البحث عن مستقر جديد.

....

(١٣)

كان الوقت عصراً ، ترى في عصر أي يوم أعيش أنا الآن ؟!.

كنت أتمشى بعيداً عن السيارة، حين خطر ببالي أن أعود للحظات الأخيرة من حياتي، قبل التيه والضياع وسط هذه الصحراء القفر، وحين ألقيت بنفسي بين كثيب الرمل الناعم النقي والحنون، وكأنني أغتسل وسط حمام كبير لا حدود له، انتعشت ورحت أتذكر:

كان الوقت عصراً ، حين اقتربت من المدخل الغربي لمدينة غدامس، وكانت سيارتي تمضي بهدوء، لقد اقتربت من المنزل، فبعد دقائق سأكون في منزلي، الطريق شبه خال من السيارات والمارة، فالمكان هنا كما في كل المدن الواقعة في الصحراء الكبرى، حيث يفصل بين أجزائها مساحات كبيرة خاوية ،وتكون الحركة فيها قليلة، إلى درجة أن الشعور بالوحشة يبقى لصيقاً بالنفس،

كما بالليل أو بالنهار، فالأمر سيان، إنها بلاد لا يمكن لها أن تعرف الزحام، مهما كثرت في طرقها السيارات والآلات.

سمعت صوت الأذان البعيد، يأتي من مسجد المدينة الكبير، بينما بدأت أحس بالجوع رحت أتخيل وجبة دسمة أتوقعها كالعادة، وجبة شهية ودسمة لمعكرونة بالدجاج، ثم يليها سويعات قيلولة وراحة، وحين يقترب المساء، ويخف سطوع الضياء المبهر، ستشرع أنامل أحد أولادي بالعزف على الأورغ، يبدأ ثائراً من بيتهوفن حتى يصل إلى بداية الليلة المقمرة لشوبان، ثم نبدأ بعدها بالتشتت ..

هذا النظام من الحياة المعتادة، جاء نتيجة لطبيعة الحياة الصحراوية، وهي حياة قاسية كما مناخها، ولكنها حياة هادئة، وهي حياة لا تعرف الصخب، وبسيطة في مفرداتها اليومية، ففي الحياة العصرية وفي المدن الكبرى نجد الناس هناك قد تناسوا الطبيعة وهم يعانون من ضغط الحياة الاجتماعية، بينما في المدن الصحراوية تظل الطبيعة تلقي بثقلها على الحياة .

لن أنسى أبداً، ما قاله لي السيد (آلان) ذلك القس الفرنسي الذي ترافقت معه، من الجزائر العاصمة، في

رحلة الألف ميل نحو مدينة أدرار، المدينة ذات البوابات الكبيرة، مثل باب رقان،وهي مدينة حمراء المظهر، ومعظم أبنيتها مليصة بالطين الأحمر، وبها نظام (فقارات)، أي قنوات مياه عذبة تحت الأرض ولمسافات بعيدة وكأنها نهر صغير أخفوه على عمق أمتار، ولها فتحات على طول الطريق بحيث تبدو كالآبار.

-: إذا أردت أن تعيش قريباً من الله، فإما أن تذهب إلى الصحراء الكبرى البعيدة أو تطير فوقاً إلى السماء العالية، فأنا لا استطيع العيش في فرنسا سوى بضعة أيام قليلة، ولذا فأنا أفضل العيش والموت هنا .

العالم فوضوي غالباً، لأن النزوات أقوى بكثير من حالة نظام، فالفوضى أقوى من أي نظام،فالأشياء لن تكون إرادة بل مجرد منعكس سلبي، فمن السهولة بمكان سحق كل نظام ضعيف في هذا العالم، فأنا في هذه اللحظات أرى شيئاً يتسم بالاضطراب، فلماذا يقف هناك مجموعة سيارات صحراوية بامتياز، وفجأة ترجل بعض الملثمين كعادة أهل الصحراء، وهم يركضون بخفة نحو سيارتي، ويطلبون مني الوقوف سريعاً، ولن أنسى أبداً صرخة أحدهم بصوت آمر:

-: تكلم مع سي الحاج الطاهر ..

لم أتمكن من مصافحته، كان منشغل البال، وهو يراقب أسراب غزلان تقف واجمة على البعد بين كثبان الرمال، سمعته يقول :

-: الحق بنا .. في هذه الليلة ستتناول لحم الغزال ..

فرحة ما، غمرتني حين غيرت طريقي، لقد كنت منتشيا حين درت بخفة ولحقت بطابور السيارات التي انطلقت كالصواريخ، السيارات الصحراوية ذوات الدفع الرباعي، ولكنني لم أستطع اللحاق بهم، الدقائق التي مرت كأنها الساعات، والسرعة التي انطلقت عبرها غير مألوفة؟!..

لم يعد للأسئلة الغاضبة، مثل لماذا وكيف حدث ذلك ؟!.أو لأي غاية وهدف سارت الأمور على النحو الذي جرت عليه؟!.

ببساطة، لأن ما حدث حدث، فقد صار النوم أنفع وأجدى من اللوم، ينبغي أن أبحث عن كل حكاية أو ذكرى يمكن لها أن تساعدني كي ينقضي زمن التيه والضياع، من أجل أن تغيب شمس ويمر يوم آخر.

حين أطفأت أضواء السيارة، ولم أنم بعد، كنت قد ألقيت بحجرة صلدة غريبة الشكل، وكانت تبدو كأنها زهرة كبيرة متفتحة ..وفجأة هاجمتني جيوش من الجان، كأنها قافلة اسماك لبدت على صدري، وراحت تخنقني بزعانفها، لقد تحولت الزعانف السوداء إلى أيد، وسواعد قوية، تقبض على خناقي، وتضغط بقوة كي أموت بسرعة خاطفة، ولكنني قاومت وقاومت، ورحت أصرخ بصوت غريزي مدو:

-: سلاماً.. سلاماً.. سلاماً ..

ما إن خفت حدة الهجوم الشرس، حتى أشعلت مصباح السيارة، وفجأة اختفى كل شيء، فرحت أترقب لحظات سطوع الضوء، الذي طال انتظاره، وحين أطلت الشمس، غادرت السيارة نحو مغارتي السفلية، ونمت هناك حتى الضحى العالي، وحين صحوت وجدت الغزلان ترعى بالقرب مني، وقد أوشكت أن تنطلق بعيداً عني، وتتركني وحيداً.

بحثت من حولي عن سر لتلك الليلة الكابوسية المجهدة، فمن أجواء حكايات ألف ليلة وليلة، تذكرت حكاية رمي نوى التمر، ومقتل جان صغير، بينما كنت

قـد ألقيـت بـالحجرة الزهـرة بـشـكل عفـوي قبـل النـوم، وكـأن لا أحـد يـسـكن هنـا غـيري، فمـاذا أفعـل ؟.. قـد يعاودون الهجوم علي ثانية؟!..

لقد حرمت من متعة النظـر إلى غـزلان الـصحارى، وأنـا أرجو وأتوسل وأعتذر بصوت عال

-: أنا لم أقصد الأذية أبداً.. اعذروني.. سامحوني ..

كنت كمن يمارس رياضة اليوغا ، أخاطب الفراغ من حولي، أضم يدي، وأحني رأسـي كمـذنب ارتكـب هفـوة، ولكنها صارت جريمة مقصودة تمت عن عمد وإصرار .

لمـاذا أنـا هنـا وسـط هـذا الفـراغ الكـبير!؟ كيـف سيمضي الزمن ! لقد صار الزمن كوجه بلا ملامح.. بدون تقاسـيم، لم يعـد للـساعات وأجزائهـا أي معنـى عنـدي، يـا الهي فالزمن هو الأصعب، عندما يتيـه الإنـسان بالـصحراء، الصحراء الفقيرة من كل شيء ..

لا حـدود فاصـلة للـزمن سـوى النـوم والـصحو، أنـام فجـراً، أصحو ضحى مرة، وأنـام الليلـة متـأخراً، و أصـحو فجـراً، لا وقـت منـتظم للنـوم والـصحو، فمعادلـة الـزمن مـع القليـل مـن العمـل، هــي معادلـة صـعبة الحـل، لأن الحـل

الوحيد لها هو في الفوضى، فوضى الأشياء .. فوضى الحواس .. فوضى العقل ..الفوضى في كل شيء.

فعند النوم تغرق الأحلام والكوابيس، في هاوية الفوضى، وهي هاوية بدون قرار، تنافس هاوية الموت ..وفي الصحو تتمرغ أحلام اليقظة ..أحلام كسولة ومتذبذبة، أحلام ناقصة بدون ذرا.. بدون نهايات سعيدة، مجرد نهايات مفتوحة على المزيد، من المتاهات .. وكذا تتراقص السعا دين عند خط الأفق البعيد ، عند سراب خط اللقاء بين الأرض والسماء، وهو مثل كل الخطوط في هذا العالم ..وهم يمحوه وهم .

الانتظار طويل في فراغ عظيم، وبدون أوهام محلية صغيرة، سأبقى فريسة لهذا الفم الوحشي، الفم المفتوح على اللانهاية ..حين أتساءل ؟: ما الذي أنتظره ؟.. يأتي الجواب أكثر تعقيداً من السؤال نفسه !.

الحياة مجرد لحظات انتظار، وبدون ألهيات مخترعة، ستكون مجرد سرد رتيب، لقصص وحكايات من غير نهايات و لأنها بدون خطوط للبدايات أصلاً!!.. إنها مجرد لحظات ظلال وأنوار ..ضياء وظلمة ..ليل فنهار.. تسلب مني كل شيء، تتركني أصارع فوضى العقل والحواس ..ثم

ترميني أعاني، من الضوء الساطع ومن الظلمة الداكنة، مع الحرارة الثقيلة والبرودة اللاذعة .. عدا عن الصمت الرهيب .. الصمت المطلق .

فجراً كنت أرقب السماء .. السماء مفرحة وتبشر بالخير .. هناك غيوم بيض مثقلة وكانت تحجب وجه القمر هل تكذب غيوم السماء كما يصنع سراب الصحراء، فالوهم هو في السؤال: أين الماء؟!.

للصحراء عيون جافة ويابسة، ولأنها قاحلة فهي لا تعرف الدموع، ما لذي يعنيه مجرد سقوط قطرات مطر .. من سيطفئ العطش والظمأ سوى غزلان هذه الصحارى ..وبقايا أعشاب متناثرة قد تخضر هنيهة، ولكنها سرعان ما تذبل وتتهاوى ميتة من الجفاف ..إنني اشتم رائحة المطر والندى.

....

(١٤)

لن أنقطع من الماء أبداً، هذا ما أحس به الآن، فلدي كمية كبيرة من الماء، وكأنني أحمل في سيارتي حوض ماء كبير يمكنه أن يسعف كل حيوانات الصحراء، لو جاءتني مستغيثة، تلهث من العطش، ولذلك فقد وزعت بعض (بيدونات) الماء، هنا وهناك، ألقيتها على مسافات متباعدة بين سفوح الكثبان الرملية، بحثاً عن تضاريس جديدة وعلامات فارغة، ترشد الكائنات الحية، إن كانت موجودة، وكانت ملونة فمنها ما هو أزرق ومنها ما هو أحمر، وقد وضعت الأحمر بالشرق حيث يظهر نهار جديد والأزرق بالغرب حيث تسقط الشمس ويحل ليل طويل.

حين اشتريت أول سيارة، لم أتعود مطلقاً على تعبئتها بالبنزين، لتسير بشكل كاف طيلة الأسبوع القادم، بدون إهمال ولكن من قلة الشعور، هذا ما أشعر به حقاً حين أطلب من بعض المارة، مساعدتي في دفع تلك الحديدة،

ولكن تلك الآلة سرعان ما تمتلك الروح حين تجد نفسها تحرك مادة أو جسماً ثقيلاً، وكأنها تتفاخر، تتمدد وتتبحبح، على الرغم من كل روح؟!..

شيء ما يتحدى العضلات الآدمية، لن يتمزق شيء ..

سأبقى طيلة حياتي، أعيش لحظات شك دائم، بل وأناقش أسوأ الاحتمالات، على أنها هي وحدها اللحظات الحقيقية، والواقعية ..

حين يمتلئ خزان السيارة بالوقود، ثم تشتعل الشموع ويبدأ الانطلاق، تتحول السيارة إلى بساط الريح، فهي تستعد للطيران؟!.. للمرة الأولى قدت السيارة في فضاء واسع، حيث لا طرق ولا إشارات مرور، والأهم بدون بشر، حيث يزول كل خطر، لقد ادعيت بأنني متعب للغاية، حين سلمت سيارتي لعامل المحطة، ولأكثر من مرة، فسيارتي الجديدة، تحتاج من سيكون سخياً معها، سيلهون معها بكرم فظ ولكن الأهم أن يقوموا بوضعها في مكان ناء وبعيد عن بؤر الازدحام، لأنطلق كشخص محظوظ، ممتلئ بالطاقة لمدة أسبوع، بل ولمسافة مئات الكيلومترات، ولكنني الآن بالصحراء الكبرى، حيث

تكـون أقـرب محطـة بنـزين بـالقرب مـن عـاهرات الـسراب البعيد..

أذكرها حين كانت تقول لي بحزم بغيض :

-: لا تنس أبداً بعد واحد واثنين أن تمـلأ خـزان الـسيارة بالبنزين ..

أنـا الآن مجـرد ضـائع في الـصحراء الـكبرى، أراجـع وصـيتي الأخـيرة، فقـد تـكـون هــي الأخـيرة فـبين كثبـان الرمال لن توجد أبداً محطة بنزين ..

سيارتي الكهلة مثلي، لقد رافقتني لأكثـر مـن عقـد مـن الحيـاة علـى إيقـاع البـؤس الـشعبي اللامحـدود، كـانـت بلـون أشـينيات البحـر، وخـضرة المـستنقعات المنخفـضة، وبقايـا عـشب الـسهول، ومـسحة مـن العـشب العطـشان علـى أطراف الصحارى.

لعـل سـي الطـاهـر كـان قـد لاحظهـا جميلـة وخـضراء وســط الــصحراء، ولــذلك أرغمــني علــى اتباعــه وســط الصحراء الكبرى؟!؟؟

كــان مــساء الـصحراء هادئــاً حــين ترامـت أطرافـه متمددة حتـى اللانهايـة، ولـذلك تعمـدت تـوفير الطاقـة، فـلا

راديو، ولا غمازات برتقالية اللون، و لازامور يملأ المكان بهجة،بعيداً عن السؤال لماذا ركضت خلفهم ؟ لماذا لم أفكر بعد بالنهاية التعيسة قبل البداية السعيدة ؟!..

لا اقتصاد ولا توفير أبداً، لأنني أحرقت حقاً بعاداتي الحقيرة، كل نداء وصرخة، فلا اقتصاد بعد اليوم، وللمرة الأولى في حياتي، كنت أصرخ محتجاً:

-: يا سي الطاهر، ياصديقي، اسلكوا طريق أوتار الدائرة..

حينها ضاع صوتي بالفراغ الكبير، فالصحراء كبيرة وكبرى بأفريقيا ..

كانت الشمس تغرب على ضياعي ولكن بأجمل حلة يمكن أن لا أحس بوجودها مطلقاً، كانت الشمس كالقدر، بل وأكبر بكثير!!..

حين تركوني وحيداً، هل سمعوني وأنا أصرخ بهم قائلاً:

-: اسلكوا طريق أوتار الدائرة

لم أفكر أبداً، بأنني سأندم، ندماً شديداً، على تقديم فكرتي تلك، لمجموعة من الصيادين الشرسين،

لأنهـم مـزودون بأسـلحة رشاشـة مـدمرة، قـد تقـضي علـى أسـراب الغـزلان الهاربـة مـن المـوت، والـتي تبـدو مـن بعيـد كأسراب حمام أبيض يطير علـى ارتفاعـات منخفضة، لأن سيقانها مـن خفـة الـركض لا تكـاد تلامـس سـطح الأرض وهي تتبع خطاً منحنياً كقوس من دائرة، ولملاحقتها فلابد علـى الـصيادين أن يـشقوا وتـر قـوس الـدائرة، لأن طريـق المطاردين لها سيكون ظاهرياً مجـرد مماسـات تبتعـد شـيئاً فشيئاً عن الهدف، حتى يختفي القطيع .

من غير المعقول أبداً، أن ألامس وهـم الفجـر الجديـد، وأن أرى الحمـائم هنـاك علـى سـفح القمـة، وفـوق أعلـى الكثبـان الرمليـة، ظـلالاً تتحـرك، لعلـه سـراب مـا قبـل الظهـيرة الحـار، لم يكـن الـوهم ولا الـسراب، بـل إنهـا قطعان الغزلان تتحـرك بكـل طمأنينـة، فهـي لا تخشى مـن شيء، لقد تعودت أن تسكن هاهنا .

....

(١٥)

مدينة غدامس أو الواحة المجهولة ذات يوم، كانت قد وقعت على تخوم الصحراء بقصورها الناهضة كناطحات سحاب الوهم في اليمن السعيد، وعلى شكل قوس حذوة فرس مثالي أو أفلاطوني للتصور البحت والخالص، حيث يحكى بان قافلة قدمت من عمق جنوب الصحراء الكبرى، متجهة نحو الشمال، ومحملة بأحجار من الذهب، حتى تبادلها بأحجار من الملح الصخري، فالذهب لا يؤكل ولا يشرب، بينما الملح الصخري تلعقه الحيوانات فتقوى ويزيد إنتاجها وفرة، فأغرتهم الظلال الطرية تحت الصخور الحمراء بالراحة، وتناول الغذاء لسويعات من الزمن، وحين غادرت القافلة المكان وابتعدت قليلاً، لاحظ أحد الفرسان ذوي السيوف الصليبية الشكل، والسيف على شكل روماني ثقيل، ويبلغ طوله المتر بعد المقبض، ، ورمح حديدي ثقيل هو الآخر وينتهي مدبباً كالسهم بطول مترين، وكأن الفرس الحمراء النادرة، كانت قد تخلفت

عن الركب، فأعلن عن فقدانها ، ولا أحد يدري كيف تشاور القوم فقرروا العودة إلى نفس المكان، فلم يدركوه حتى صباح اليوم التالي .

حين وجدوا الفرس الأحمر الناري، مزهواً بالوقوف فوق بركة ماء، وهو ماء عذب، وكأن الماء قد انفجر من تحت حافريها ، لذا أسموها عين الفرس الأحمر، وحين صارت مستقراً لهم، شرع الحكماء في القافلة بتنظيم حي جديد ، وحياة جديدة، بل وأطلقوا على المدينة اليوم وبعد آلاف السنين، يوم عيد غذائنا أمس، لتتحول فيما بعد اختصاراً ، إلى غدامس، حيث تغذينا بالأمس ..

حيث الماء في هذا العالم الصحراوي الكبير تكون الحياة، ويكون النماء والتكاثر، لأن عين الفرس العذبة، ستفيض وتفيض لآلاف السنين، وربما للأبد ، ولذلك راحوا يجمعون الصخور النارية ويشكلون حول النبع شكل حذوة الفرس الأحمر، وعلى القرب منها بنوا مسلة للخصب والنماء على شكل عضو ذكري، وعلى بعد عدة أمتار بمقدار ارتفاعه بنوا مسلة رحم خصيب بحثاً عن البركة والخصب .

الساحة الصخرية المسيجة بالأسلاك الشائكة، وتبلغ مساحتها حوالي الهكتار، وتقع على بعد مئات الأمتار خارج المدينة المغلقة، كانت كما يبدو عليها معبداً مقدساً لطوطم مجهول، ففيه مكان لتقديم القرابين، ومن المعقول أن يتم فيه مباركة العروسين، لحياة فيها خصب ونماء.

تلك الصور والخيالات كانت قد هاجمتني لحظة زرت المكان، وهمت بين صخوره العتيقة فيما قبل التاريخ، ولا أدري ما هو السر عادة وراء رغبتي في الوقوف وحيداً، أمام الآثار القديمة، حيث لا أحب أن يرافقني إليها أحد، بينما أنا الآن في مستودع الصحراء الكبرى، أهيم فيها متوحداً مع القدر، أتخيل أيامي الأخيرة بالمدينة وهي تستعد لقدوم أيام عيد الأضحى الكبير، تلفها بهجة انتظار العيد، وحين تمر بين البيوت والحواري، ستسمع ثغاء الخراف عالياً، وكأن تلك الحيوانات تتحاور فيما بينها، وبصوت عال، فيتجاوز صوتها أسوار المنازل : ماع .. ماع.. ماع ..

كنت أسير مع المهندس مصطفى قريشي، حين تعالت أصوات (الماع ماع)، حيت هتف ساخراً:

-: تحدثوا بأصوات عالية، أنتم الآن أحرار، وسنرى إلى أصوات صراخكم عند رؤية السكاكين الحادة، في يوم العيد، لم يبق سوى أيام ..

حين ضعت بالصحراء، في شهر نوفمبر، حيث يكون الجو خريفياً، حيث تكون الليالي ربيعية، بينما يحل الصيف نهاراً، والعيد بعد يومين أو ثلاثة، وفيه يحدث تغيير بسيط في عادات الناس اليومية، حيث يتحدث فيه الناس مع أكباشهم، التي تنتظر الذبح، تضحية بها، كما كان المدير البخاري يفعل، فمن حين لآخر، يضحك ثم يهتف مازحاً:

-: اليوم دورك، كل واشبع جيداً، اسمن، سيأتي دورنا لنشبع من لحمك..

يتقابل الناس، يتحدثون بلغة جديدة، فيها بعض الطرافة .

-: كيف حال كبشك اليوم؟!..

-: كيف هي معنويات كبشكم؟!..

-: اليوم كبش المهندس مصطفى القاسمي، ثار عليه ونطحه، ولذا فقد ربطه بحبال متينة، وصار يخشى الاقتراب منه؟.

كان كبش المدير محمد البخاري، يلتهم كل شيء يقدمه إليه، ولذلك كان يعلق عليه بشكل ساخر:

-: انظروا إليه، انه كبش بليد، يأكل من غير اكتراث، ولا يعير اهتماماً لأحد، (حشيشه طالبه معيشه) يبدو أنه (عقون) أو (بكوش) . .

أما كبش المهندس القاسمي فقد جاء على شكل مغاير لشخصيته، ففي حين كان قاسم هادئاً في طبعه، ودوداً ووديعا، كان كبشه مشاكساً وعنيداً، ونطاحاً أيضاً ..

أما كبشي الصغير، فقد أطلقوا اسم الغزال، لأنه كان ناصع البياض، ويتبعني بخفة من مكان لآخر، وكانت قرونه دقيقة وطويلة .

ورحت أردد بفرح: أين تلحق كباشكم غزالي!.

....

(١٦)

لقد طالت الفرقة والغربة، فقد نشأ وضع جديد، وحل أصدقاء جدد، إنها قطعان الغزلان الصحراوية الناصعة البياض، كلما جاء نهار ظهرت تلك الغزلان، وها أنا أشعر بها تقترب مني رويداً رويداً.

من واجبي أن أستضيف قطيع الغزلان .. أخرجت المزيد من العلف ووضعته في مكانه المخصص، كمعلف لخروفي، ماذا يأكل الآن لست أدري ؟، يا لخروفي المسكين لقد أصبح وحيداً، ومما يقلقني عليه، كونه مكروهاً من زوجتي وأولادي، لأنهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر مقدم العيد، فأحد أولادي كان تعلم كيف تتم عملية التضحية وفقاً للشريعة، وقد قرر أن يبدأ به صبيحة العيد، ويقولون عنه دوماً، إنه عنيد ومشاكس، ولا يلين لأحد منهم، ويرفض التقرب منهم ..

من الأكيد الآن، أنهم أكلوا من لحمه، و يا ليت لا ألقى منه شيئاً أبداً، لأنني سأحرم على نفسي أكل لحمه، فقد كان السبب في نجاتي إلى اليوم من الهلاك، بسبب مائه وعلفه وخبزه اليابس، و ها أنا ذا أكسب

أصدقاء جدداً.. وهاهي وحشتي تتبدد ، وبدلاً من خروف الغزال، صار قطيع من الغزلان الحقيقية ، كالحمائم البيض، كل هؤلاء صاروا أصدقائي ..هاهم الآن يأكلون بروية وهدوء بضع لقيمات .. الكبار تراقب والصغار تأكل وتلعب، وكأنه مجتمع يتميز بالود والغيرية العالية .

لقد تحولت حياتي بالجزائر، نحو الجحيم، نحو الموت البطيء، الموت لحظة فلحظة، فلا يمر أسبوع أو يوم إلا وأفقد فيه صديقاً عزيزاً ، وكأنني طائر ينتف ريشه لحظة بلحظة ، تهديد مستمر وقتل دائم، فالجوع فظيع للدماء البشرية ، وكأن دماء أحبتي هي وحدها ستصنع الحياة الجديدة ؟!..

وفجأة أصبح الجميع يحاصرني بقوة ويطردني بخشونة بالغة

:- هيا غادرنا ، هيا فارقنا ، فقد تفقدنا بيد أننا لن نتصور أبدا لحظة فقدانك ..

ما حدث هو العكس، لأنني بقيت أعيش شقياً ، يعاني من لحظات الألم فقد أصبحوا مجرد ذكريات، وليتهم كانوا يعلمون بأنني قد أصبحت بلا ذاكرة ..وليتني لم

أغادر أبداً، فالدموع أو مجرد لحظات الموت لا تعني شيئاً، فلماذا اختار الأحبة أن يتأبد شقائي؟.. أمن أجل مجرد حياة؟!..

من المعيب حقاً أن أتنهد حسرة، أو أن أصفق منزعجاً، لمجرد أيام ضياع في الصحراء الكبرى، فالزمن البطيء لم يخمر حقيقة ضياعي بعد، والرمال أمامي مازالت ذهبية ناعمة ووديعة ..

ماذا لو عادت القافلة الآن، لتجدني هلعاً مرتعباً، من مجرد سويعات أو أيام من الوحدة في حضن الكثبان الرملية، سيكون اللقاء مخجلاً للغاية .

ينبغي أن أتصالح مع ذاتي، فلماذا وإلى متى سأظل أخاف من الثعابين والأفاعي ؟!..

ألأنني عانيت من لدغة سم قاتلة في لحظة ما من أيام طفولتي الغابرة ؟!. ولكنني لم أمت .. نعم لم أمت فلماذا الخوف من هدوء كثبان الرمال الذهبية، وحتى الذئاب، لماذا أخشى الذئاب ؟!.. ألمجرد أن ذئبا بالجزيرة العراقية قابلني كوحش، وكنا قد تحاورنا بعنف شديد، فلم يتغلب علي ولم أتغلب عليه !..

كان محمد البخاري شخصاً بسيطاً للغاية، يضحك من أتفه كلمة، يعشق السرور حتى ولو كان ذلك بالفراغ المطلق، ومع ذلك فإنني أتذكر كلماته الضاحكة :

-: يوجد هنا بالصحراء الظربان، المزود كالقنفذ بدلاً من الأشواك، ببعض السهام، ولكنه ليس سوى قط، أما الذئب الضعيف في زمجرته وعوائه، ليس أكبر من أتفه كلب ..

قال ذلك بعد أن أخبرته عن حيوان غريب صادفته ليلة الأمس، كنت في طريقي نحو بيوت الشباب، وهو عبارة عن مبنى حديث، مزود بأحدث وسائل الرفاهية، ومن النادر أن تجد مثله في مدينة صغيرة، ولكنه يقع في مكان ناء، فقد مضيت نحوه سيراً على الأقدام، إلى أن وصلت إلى المنطقة المظلمة التي لابد من عبورها للوصول إلى المبنى للمرة الأولى، كان الطريق إليه معبداً بشكل جيد، ولكن سواد الزفت مع ظلمة المكان، جعلني لا أميز الأشياء ولا أراها بوضوح، وعلى يسار الطريق رأيت منحدراً صخرياً ينفرج عن صدع كبير، وبدت لي مجموعة من زرائب الحيوانات، حيث انتشرت رائحة روث الحيوانات، ورائحة الصوف، والخيش والأعلاف المختمرة، وفجأة لمحت حيواناً غريباً،

برأس صغير على شكل هرم طويل، كان ينظر إلي بعينين كعيني عجوز هرم يحدق بشكل كسول، وهو أغبر كأنه قد خرج من قبر، كان بحجم القط، وصوف منفوش قليلاً، مع بضع بقع مدببة، ولأنني تصورته مجرد قط صحراوي غريب الشكل، فقد عبرت بأمان.

إنني الآن وسط السكون المريع في الصحراء الكبرى، ولكنني مازلت أحس بالأضواء الكهربائية، وضجيج حركة الناس، فحيرتي لم تتبدد بعد، فأنا في الزمن الأول من الضياع المجهول، وشيئاً فشيئاً ستكثر أسئلتي، وحين أضع أمامي البوصلة الصينية وهي الميدالية العلاقة لجميع المفاتيح التي أحملها معي، فلن أشعر بالضياع، لأنني أعرف الاتجاهات، فهناك الشمال القطبي، وفي الاتجاه المعاكس هناك الجنوب القطبي، وفي كل الاتجاهات لا توجد سوى سفوح عالية لكثبان الرمال الناعمة، فأيهما سأصدق ؟!.

الصحراء الكبرى تتحدى البوصلة، بأن لا اتجاهات فيها أبداً، فكما الشمال يكون الجنوب، فلابد لي من اختراع بوصلة جديدة، بوصلة لاتجاهات الريح ومسارات الرمل المتحرك ببطء الآن ..

جربت أن أصرخ بهزء:- أنا ضائع.. أنقذوني.. أنقذوني..

لم أسمع أي صدى، كان صوتي يضيع هو الآخر، كمركب صغير في المحيطات..

لماذا لم أصرخ بصوت حقيقي؟!.، بل لماذا لا اشعر بخطر الموت حتى اليوم الثاني ؟!.

....

(١٧)

الآن جاءت الساعة الحقيقية، سأعبر عن نفسي بقوة، فالسيارة التي كانت بمثابة منزل مغلق، يجب عليه أن ينفتح على هذا العالم الموحش بحثاً عن لحظات أنس وتفاعل ...

أحمل في صندوق سيارتي أشياء غالية، أشياء تحميني من الموت جوعاً أو عطشاً، ففي ظهيرة ذلك اليوم الذي عدت فيه إلى البيت متأخراً، ثم صادفت فيه الحاج العقيد الطاهر مع حرسه الشخصي، الأمر الذي ورطني بالمغامرة، واللحاق بهم بشكل هستيري مجنون، وكأنني مجرد

إنسان جائع، ملهوف لالتهام لحم الغزلان بشكل وحشي، بينما كنت قد أصدرت لنفسي فتوى خاصة، أحرم فيها على نفسي أكل لحوم الطيور الصغيرة والجميلة، كالعصافير والحمائم، وكذلك اللبونات الجميلة والصغيرة كالغزلان، لأنه من الخير أن نحافظ على تلك الحيوانات الجميلة، ومع أنني لا أكره الخنازير، وحتى البرية منها، وقد أكره أكل لحمها، ولكن إذا كان لابد من التضحية فلتؤكل الخنازير البرية أولاً، لقد أحببت خروفي الصغير الأبيض، فلا شيء فيه أسود سوى عيونه وقرونه اللولبية الشكل، ولأنني عانيت في تربيته فقد أحببته كما أحبني.

في ذلك اليوم الذي لن أنساه حتى الموت، أين ؟

ملأت له ولي عدة (بيادين) وهي صفائح بلاستيكية، من الماء العذب، واشتريت له معلفاً، وعلفاً، فقد مررت قبلها على مطعم المعلم العراقي أبو ديالى، لقد كان مدرساً بالجزائر، ترك العمل التربوي وقرر أن يعمل في الصحراء الكبرى بعيداً عن ضجيج المدن الكبرى، كان أبو ديالى من مدينة بعقوبة، فكنت أشعر بالحرج من زيارته، لأنه كان يترك من يده كل شيء وسط

الزحام، يكتفي بوضع النقود في جيبه، ويترك البقية لعمال المطعم فهو على ثقة تامة بهم، ثم يجلس معي يفرش علبة الشطرنج، ويشرع باللعب معي بطريقة هادئة، ولا ينسى في كل مرة، أن يضحك قليلاً، وهو يذكرني بقصته الطريفة، وهي تتضمن تساؤلا يستحق النظر، فحين تسابق العراقي مع اللاعب السويدي في لعبة الشطرنج غلبه، وحين شاهد السويدي العراقي يغلب في السباق مع هندي، نشأت مشكلة السؤال، لماذا وكيف ؟!.

كان أبو ديالى هو الحلقة الوسطى، فكان جوابه للسويدي :

-: لقد كنت ألعب معك وأنا جائع، ولكنني فوجئت بالهندي أكثر جوعاً مني ومنك ..

لقد أعجبه لعبي ذات مرة، فراح يسألني بشكل جاد، أستاذ : لماذا تكره لعبة الشطرنج ؟!.

أكثر من مرة أقول له بصدق:

-: لست أكرهها أبداً، ولكنها تذكرني بلحظات سجن أبدي كبير؟!.

كان يسحب نفساً كبيراً من سيجارته ينفثها ، ثم يشرع بالنظر إلي محاولاً قراءة أفكاري الخاصة ..

ثم يسألني ولأكثر من مرة:

-: هل أنت مرتاح في عملك؟!.

-: نعم أنا مرتاح بأكثر مما تتصور..

لا تعجبه إجاباتي أبداً ،لأنه سرعان ما يقول:

-: هذا المطعم العجيب، مجهود قليل ودخل كثير، وعما قريب سأرحل مهاجراً إلى كندا ، إلى أقصى شمال أمريكا ، فعائلتي تنتظر لحظة بلحظة تلك الهجرة .. ما عليك إلا أن تقرر لتستلم المطعم، وتهاجر إلى أي قارة تشاء .. فكر يا أخي لن تخسر شيئاً.. ستبقى هنا يا صديقي تعاني من حياة لا استقرار فيها ، ليس لأنها الصحراء التي تتظاهر بحبها دوماً ، فالعمل في كل البلدان العربية ، كما محطة مؤقتة للهجرة وللمسافرين،نحو القارات البعيدة، نحو كندا واستراليا ونيوزلندا ..

شكوت له من الخروف العزيز، فأحضر لي عدة أكياس كبيرة من كسر الخبز اليابس والطري ..

أما عن العلف الأخضر، فقد تطوع مدير المعهد الذي أعمل به، بملء عدة أكياس من البرسيم، والحمقاء، والملوخية، ومن مختلف أنواع الأعشاب، وزاد عليها كوماً من الباذنجان والطماطم (البندورة)، والبطيخ الأصفر، وهو يضحك ويضحك:

-: هذه السنة لم ينجح البطيخ الأصفر أبداً، إنه مضروب بدودة، لست أدري لماذا؟ هذه هي المرة الأولى ..إنني أتساءل الآن؟

-: ماذا يأكل خروفي العزيز؟!. ماذا سيشرب ؟!..

هل يتساءل ضائع في الصحراء في نفسه، عن مجرد خروف ناصع البياض، يسكن في بيت، فيه كل مقومات الحياة العصرية، بعيداً ولو قليلاً عن وحشة الليل في الصحراء الكبرى، وحشة سكونها، وحشة صمتها بدون ضجيج مفهوم، من سوى وحشة السكين ذات يوم ؟..

....

(١٨)

لينفذ كل شيء، حتى الماء والعلف والغذاء ..

المهم أن أشارك الآخرين، وبخاصة غزلان الصحارى، فنحن جميعاً مجرد كائنات حية في الصحراء الأفريقية الكبرى، حيث تستحيل الحياة، بدون تضامن ..

النفط النافذ في خزان سيارتي، المس مرسيدس، يكفيني لأكثر من مجرد عودة إلى الحياة،ولكن أين الطريق، أين الطريق المعروف المبلط، والذي يمكن تتبعه كإشارة مرور كونية، مثل القمر والشمال القطبي، بل وفقاً لقرارات البوصلة المحيرة والمحتارة ..

النفط والوقود ليسا نهاية للعالم، فالطريق نحو الموت في الصحراء الكبرى لن ينقضي سهلاً مهلاً، فما زلت أتصور نفسي إنساناً يتحدى كل عوامل الفناء، لن أموت بسهولة، بل لن أستسلم أبداً، فالحياة قد تمنح مرة واحدة، ومن العبث أن لا يصمد المرء فيها لعدة جولات، ومهما كانت الضربات واللكمات قاسية، وقاسية جداً، فلن أقرأ السلام (آمين) على روحي لمجرد الشعور الأولي بالخطر، أين الخدوش؟!.

كل ما في جسمي سليم، وكذا عقلي هو الميزان الحقيقي، فأنا قد لا أموت بهذه الطريقة السخيفة مطلقاً.

فالصمود هو مجرد زيادة في لحظات الصمود ..

مدرس رياضيات معلق على صليب من نوع جديد، صليب الصحراء الكبرى، حيث هزمت كل حضارات العالم المعاصر، فألقيت كل أشرعة المغامرة من أجل العلم نحو الكواكب البعيدة بل وحتى المجرات الأكثر من بعيدة ..كل ما حولي سكون بالغ، بل هو الغسق حين يقب، والوقب هو ظل ظلامي وهو ظلال للظلام في الظلام، حيث يعسر على النظر أن يميز في الظلام الحالك شيئاً..

ما الذي يضيء؟!. حقا يضيء فالصفحات التي سأكتب عليها سوداء معتمة، فلا هلال ولا قمر، لكن شيئاً غريباً ويبدو وضاء كذبابات النار، أو قل كملوك الخنافس الغبية من ضياء كهرباء أديسون العظيم، إنني ألمح وجهي يتلامع فضياً على سطح مرآة السيارة، فما الذي تخبؤه اللحظات القادمة؟!..

هل سيتساوى الليل مع النهار؟!..، لست مرمياً بكل بلاهة عند خط الاستواء، الأشياء المجهولة جداً كانت قد خبئت بعناية بالغة، بحيث لن أحس بها أبداً، أبداً، فمثلي لن يشعر مطلقاً من كون الغدد الليمفاوية تعشش تحت الإبطين، وحين أتحرك من حين لآخر يرقص الرمل معي كما ترقص برادة مع المغناطيس .

وسط الصحراء الكبرى لن أضيع، لا لن أضيع، فأنا مثل زحل الذي تتراقص حوله تسع كواكب، ربما كنت بالماضي شجرة عتيقة، لم يحرقها لهيب الصحراء، فقد أتخلى عن أشيائي الزائدة عن اللزوم، عن أوراقي وعن أظفاري، وحتى عن بعض أغصاني، ولكنني لن أتخلى عن خلايا أعصابي، لن أتخلى عن الجذور التي أحملها، جذوري ستبقى تمتص الأملاح، لتكون قوية كالرخام، بل ومن غرانيت فينوس الوردية ..

لقد صنعت بشكل غريب ومثير، قديم وحديث، فمعدني الخليط من الألومونيوم والماغنيزيوم، أقوى بكثير من هيكل طائرة ولذا لن تبتلعني الصحراء الكبرى بأفريقيا، هكذا بسهولة، فقد تكون الصحراء الكبرى زاهية بنفسها، كما وديان العقيق بالسعودية، ولكنها

ستتخاذل مبهورة أمام سحر مناجم الفيروز بإيران، لذا لست سهل العطب أو الصدأ، فقد أجري في لحظة ما، منطلقاً بشدة بعد كمون، كأنني عطارد مجنون يركض حول الشمس الغاربة في الصحراء الكبرى ..

أيها الإله الطيب لا تدعني أنهار هنا كبناء مهجور وكأنني بدون أعصاب، لا تتركني كضفدعة تنظر باستغراب إلى المستنقع الجاف، حيث لا ماء حولها بل مجرد صحراء، لقد تصحر العالم فجأة ؟!..فالنظر الفسيفسائي صار مجرد لون أصفر هازئ .

سأبحث عن الأحجار الصغيرة، الأحجار البركانية الصلدة، وعندما أجدها، سأصنع منه طريقا، سكة حديد صغيرة، من عدة أمتار، وسأزحزحها مرات ومرات حتى أصل إلى مكان مكشوف، يمكن أن يصادفني فيه قافلة من الصيادين، ومن الدوريات التي هي حتما تبحث عني في كل مكان، وحين أتخيلهم مستنفرين في بحثهم عني ليلاً ونهاراً، أشعر بالأسى والشفقة عليهم، فلماذا سببت لهم هذه الكارثة؟. فهل سيجدونني ضائعاً كإبرة وسط بيدر من التبن؟. يا لحظي الأخرس لو كان يتكلم الآن.

كان الجو هنا وسط الرمال الذهبية، معتدلاً، معظم النهار، عدا فترة الظهيرة والقائلة، حيث تشتد الحرارة، وتهب الريح الساخنة، فتهيج معها الرمال الناعمة، عندها أشعر بالاختناق، وفي هذه الأوقات سأكون عادة تحت البيت الرملي، فسقفه هو سيارتي العالقة بين كثبان الرمال أو قل هو مثل المغارة المحفورة بالرمل، لأنه غير مفتوح إلا من جهة واحدة، بينما هو مغلق من الجهات الثلاث.

وجدت على مسافة غير بعيدة، من مكان إقامتي الجبرية، حقل أحجار نارية حمراء، فصرت أكومها كما يكدس الناس الحطب، حتى صنعت منها هرماً صغيراً، كان بدوره قد أوحى لي، أن أتخذ منه قصراً فرعونياً، ثم أموت فيه خالداً ومخلداً، تحت صرح هرم فقير ومتواضع، لفرعون صغير وتلك هي حدود إمبراطوريته، ثم فكرت ثانية، بأن أبني بها بيتا، وقد أتوسع به .. ثم قلت لنفسي، هذا تفكير عبثي، ويائس، فلا بد من بناء سكة حجر والانتقال إلى مكان آخر، فالعز في الانتقال والذل بالبقاء، فالانتقال غالباً ما يصير كالقدر، فحين يجد المرء نفسه بدون أحبة، فماذا سيفعل، إنه يشرع بالبحث عن غيرها، لماذا؟!.. .

(١٩)

كان اسمه خالد، وكان اسمه يليق بالخلود، فمن ذكره ينتعش فؤادي، ويغمرني شلال من الأسى، فأحس بفقدانه، نعم و لقد وقع الفراق، وهو فراق كان قد وقع فيما بيننا وقبل الأوان، لقد بكر الموت في بلوغ غايته، فجاء قبل الأوان، وبغتة، فأشربني بالرغم عني كؤوساً مرة، ليست من قهوته المخالطة للفلفل الأسود ولكن من مر زيت الدفلى وطعم العلقم ..

تذكرت أشجار الخروع، وكنت قد زرعتها منذ سنوات، لقد أصبحت أشجاراً وارفة الظلال، وأينعت ثمارها، فغدت تحمل ثماراً تشبه البلوط، ولكنها مرة الطعم، بينما أتذكر أوراقها الضخمة كالأكف البشرية، ولقد شعرت بالسعادة، حين جاء الجيران يستغيثون بي ليلاً، يطلبون بعض الأوراق النامية كدواء، لأطفالهم الذين يسعلون بشدة من برد الصحراء ليلاً، فأوراق أشجاري اليانعة صيفاً وشتاء، حين تستقر على صدر مصاب بالبرد، فإنها كالأكف الدافئة تدفئ الصدور وتزيل التشنج .

من سيسقيها الآن؟!.. من سيعتني بها؟!. إنها ليست كأشجار الفاكهة المدللة، إنهم سيسقون أشجار الرمان وسينسونها، لأنها ليست ثماراً تؤكل..

إنه خالد الأمين رفيقي الدائم بالسفر، المسافر الأبدي معي، فحيث أذهب، سيذهب معي، ولا يمنعه من ملازمتي كظل دائم، كشجرة بيت وفيرة الاخضرار والظلال، سوى الحدود والعلامات الفارقة بين الشعوب والأمم، لماذا كان يصر على السفر برفقتي؟.

كان يبدو وكأنه الحارس الشخصي لي، بالرغم من أن هذا لم يكن يليق به أبداً، لقد كان يصر على مرافقتي من ولاية لأخرى، يرافقني كظل حميمي للغاية، لماذا؟!..

حدث ذلك حين تورط و عرفني بوالده الطيب الصالح، حفيد الولي الصالح سيدي خالد، صاحب المزار الشهير في مدينة تيارت، فلم يكد يسمع من ابنه، بأنني صديقه ولكن من بغداد أو دمشق، حتى قطع لحظات تلاوته للقرآن، وراح يحلف ابنه كي يعتني على نحو خاص، وكأنني شخص مقدس هبط من السماء.

إنني أتذكر بصعوبة بالغة، تلك القصص التي رددها عليه، وكنت أثناءها مأسوراً بمحبته ورعايته كأب حنون، كان قد اعتبرني كضيف من العهد القديم، وبالفعل فقد صرت أنا وأطفالي وزوجتي، وكل العائلة أبناء مدللين، تحفنا العناية من كل جانب، فعند الأمين خالد، صرنا أول الأبناء وآخر الأحفاد؟!.. حتى أن أحد أبنائه كان قد تمرد على أبيه وأمه وهو يتساءل:

-: هؤلاء مجرد أجانب ..

كان خالد يحتقر أخاه ويقول له

:- نعرف ذلك.. في كل الأحوال أنت شرطي.. ولكنهم مسلمون وعرب مثلنا يا فهيم.

ولكنه في نفس الوقت كان يلقى المحبة من أبيه، فقد كان يشجعه على المضي نحو الأمل بالله، والابتعاد عن اليأس، فاليأس شيطان مارد.

كنا نعبر طريق الروكيت و هو طريق الصخور عبر الصحراء الكبرى، وكان الوقت فجراً، حين انفجر دولاب السيارة الرابع، وكان الاحتياطي قد تمزق شر

ممزق من الطريق الصحراوي الطويل، فكان أن انقطعنا وضعنا في مكان بعيد ومجهول، ليس فيه طير أو بشر ..

حين غادر السيارة فجراً، والبرد قارس، شعرت بفقدانه الأول وحين تأخر بالقدوم إلينا شعرت بموته بالصدفة، ولم يكن يعلم بما أحس وأشعر به، لقد مضى بشكل يثير الدهشة والاستغراب، نحو عالم مجهول للغاية، مليء بالبرد والهواء وبدون ثياب أو غطاء، لأن السيارة التي تحملنا كانت مكيفة ودافئة، وكأن ثمن المتعة من الدفء قد حلت ساعة دفع كل أثمانها دفعة واحدة.

عاد إلينا خالد الأمين صبيحة ذلك اليوم، كما لو كان شخصاً آخر يعود إلينا من قبل الحياة والتاريخ، فقد أمضى ساعات الفجر الباردة الربيعية على ظهر جرار زراعي مغفل، وهو يتجمد من البرد، وترتجف كل خلية من جسده، ولأنه كان شديد المحبة، وسهل البكاء، فلن يهتم بشيء، سوى انطلاق القافلة التي يرعاها نحو الهدف، كان الدولاب الذي أحضره، غريب الشكل، فقد خط عليه بشكل إعلاني قديم للغاية، مصلح عجلات، فكيف استطاع خالد بن الأمين بن سيدي خالد إقناع صاحب

الورشة النائمة، بالبكاء أم الغناء، ومن أن ثم خطراً داهماً يتهدد الإنسانية بأسرها، لعله بكى وشكا.

الحياة حقاً تزخر بالمفاجاءات، ومفاجأتي الخاصة تقطر دماً وألماً، حيث لم أتغيب عن حبيبي خالد الأمين سوى يوم واحد، هل يكفي يوم واحد لتحل نهاية العالم؟!..

هذا ما حدث بالفعل، فقد تجاوزنا الصحراء الكبرى، بعجلة قديمة للغاية، تحمل عنوان مصلح عجلات، وليتنا متنا هناك جميعاً بدلاً من تلك الفضيحة، فقد مرت السيارة المحترمة، المس مرسيدس عبر عدة مدن وهي تسير عبر عجلة منسية وتحمل العنوان: مصلح العجلات.

إنه أمر عادي للغاية، فالمهم أن تسير السيارة ولا تتوقف، فالناس لا تحب التوقف إلا قليلاً، وكيفما كانت المحطات، فالمهم أن نستمر ونمضي، ونصل ...

ذات نهار كئيب للغاية و يبكي بحزن، وبعد سفرتي الأخيرة بدونه، فقد مضى زمن حقير، لم نلتق به، لماذا؟!. لا أحد يعلم أبداً، إنها الحياة، وفيها المشاغل والنسيان .

لقد قتل صديقي بطريقة فجة، لقد أبلغتني زوجتي بذلك وهي لا تعلم ولن تفهم ولو للحظة ما مقدار أن لا يكون بالوجود الحالي شخص اسمه خالد ؟!..

لقد حدثت الثورة، وانفجرت حقاً، فالحياة لن تعني أبداً موت حياة رفيقي خالد، لقد كان رمزاً لبقائي، فحياتي لن تكون أبداً بدون رمز ..

حين قتل خالد بالرصاصات الغادرة، كان عمر ابنه، لا يتجاوز الشهور، وكان هادئاً كأبيه، لا يصرخ أو يبكي شوقاً، بل ويتحمل كل صروف الدهر ..

لماذا قتلتم خلود حياتي ؟!..

كان الجواب أصم، وكأنه زوبعة رمل وعاصفة صحراء رملية:

- : لقد مات بالصدفة البحتة، نعم لو كان يدرك معاناتنا لما حدث ذلك معه ..

-: لقد كان يحب لعب الدومينو؟!.. مع من؟!.. مع ضابط شرطة؟!..

كان أحد ضباط الشرطة يسكن في عمارته، وكان يلعب معه في مقهى صيفي صنع بشكل مؤقت، مجرد

خيمة مكشوفة على كل العمارات المجاورة، ولذا فإن أياً من الساهرين يمكن له أن يسمع نداء زوجته، فيغادر على الفور، هذا إن لم تكن متعة اللعب أو التفرج على اللاعبين تفوق متعة العودة إلى البيت، لمجرد العودة، فالليل طويل، كانت الجماعات المسلحة (الإسلامية)، قد اتخذت قرارها بتصفية ذلك الضابط، فقد قتل كل من كان يشاركه لعبة الدومينو، لأن الشهيد خالد الأمين هو اللاعب الأول، ومن الصعب التغلب عليه في هذه اللعبة، فقد كان يلعب معي بشروط ممتازة، حتى يعطيني فرصة للتغلب عليه، ولكنني لم أقدر على تحقيق ذلك ولو لمرة واحدة، فهو حين يلعب ويبتسم ابتسامة الواثق من نفسه، ومن الأحجار التي بين يديه، فإنك ستشعر بالهزيمة نفسياً، وتتسلل إلى نفسك مشاعر اليأس في الفوز.

كانت تلك الليلة دموية للغاية، فمعظم من كان في المقهى سقطوا مابين قتيل مضرج بدمائه، أو جريح ينزف بشدة، أما الأصوات المر تعبة، التي صنعتها الضجة المدوية لأربعة مدافع رشاشة تنطلق في آن واحد، ويتردد صداها بين العمارات المتجاورة في الحي والمطلة على المقهى، وصرخات الجرحى، وعويل نساء الحي، كل ذلك جعل من

تلك الكارثة، ليلة مرعبة، ستنطبع في ذاكرة الناس، ولن تنسى أبداً.

أن أعود إلى المدينة، وليس فيها خالد ؟!. شيء لا يصدق أبداً، لقد صارت المدينة كاسفة ومهجورة، وحين رأيت جثمانه الساكن، وبقايا روحه المغادرة من قريب، ظلت على وجهه علامة رضا ومحبة، وابتسامة أليمة، فانفجرت في نوبة بكاء ونشيج هستيري، ثم هربت بعيدا عنه.

وساعتها ارتسمت في مخيلتي صورة الخروج من هذه المدينة التي عشت فيها لأكثر من عقد من الزمن .!!..

أين أنت الآن يا خالد، ربما اقتربت ساعة لقائنا أيها الحبيب، إنني الآن في طريقي هناك، إلى الأفق البعيد حيث تتلامع مرايا السراب، ووجهك منطبع عليها بابتسامتك الرائعة .

....

(٢٠)

من ولاية تيارت، إلى عاصمة الشرق الجزائري، عبر طريق الروكيت، ومنها إلى سكيكدة، وبعد فاصل موسيقي و يليه الشكر على حسن الانتباه، نواصل السير مع الخنزيرة المس مرسيدس، عبر ولاية عنابة، وصولاً لولاية الطارف على الحدود الجزائرية التونسية، ودعت خالد الأمين، كان يبكي وينتحب بلوعة طفل صغير، فقد أحد أبويه، حين ودعته حزيناً شعرت بما يشعر به خالد الأمين، وهو الذي ظل لسنوات يزور قبر والده، ويبكي بحرقة، وكنت كلما رافقته إلى المقبرة، راعني شدة بكائه السخي على والده .

أتألم كثيراً حين أراه يكلمه كما لو كان حياً، وحاضراً بيننا، فأتوهم حضور الميت، وكأنه حي موجود بيننا،

إنه حساس بشكل فظيع، تهيجه كل أنواع الفراق .

كنت أود أن لا يكون خالد الأمين رفيقي في سفر بعيد، لأنه كلما طالت المسافة، ازداد خوفاً وشكاً، إلى درجة الانهيار، إنه الوحيد الذي عرفته في حياتي، يحس

بأن الحياة مهما طالت هي مجرد لحظات، وكأننا ما كنا ولن نكون سوى تلك اللحظات القريبة والمباشرة .

حين تركته في أصعب اللحظات والظروف،فلم أشعر أبدا أنه لم يكن على حق، وبخاصة حين عبرت المنطقة الحدودية لوحدي، ولعشرات الكيلومترات في الطرق المهدمة، كانت المنطقة الحدودية مهجورة، ومليئة بالحفر، وسط أحراش غابة موحشة .. يعبر من حين لآخر فوج خنازير برية ثائرة، فأتوقف مرات ومرات، فأسير في بطء شديد، خوفاً من مفاجأة وأنا بدون خالد الأمين ؟!..

وكما يقال، فقد سارت الرياح وفقاً، لما يشتهيه ملاح السفينة التي تتلاطم وسط الأمواج، وربما بدعاء من صديقي خالد الأمين، وهو يودعني، ويتمنى لي العودة سالماً.

كان الوقت، قد تجاوز منتصف الليل، حين وصلت إلى مجموعة من البيوت الصغيرة المضاءة، بضوء خافت ولكنه كاف وسط الليل المظلم في الغابة المجاورة.

حين وصلت إلى بني غردن كان كل شيء هادئاً، لم أجد أحدا من شرطة الحدود التونسية، انتظرت قليلاً، وفجأة حضر أحدهم، سلم بكل أدب واحترام، ثم قال لي:

- اسمع يا شيخ، نم بالسيارة النوم العميق، وكن مطمئناً، هنا توجد حراسة من حولك، ولا تنس أن وراءك طريق طويل نحو تونس العاصمة .

كان خطابه كافيا، لأنام ولكن ليس بدون شبح خالد الأمين .. إن لحظات وداعه العاطفية كانت مؤثرة وبليغة ولا يمكنني أن أنساها في هذا المكان المظلم وسط الغابة.

نمت أخيراً من التعب،ولكنني صحوت على طرقات خفيفة على نافذة السيارة، وكأنها طرقات خالد الأمين، ونحن في عمق الصحراء، لاحظ السيد دهشتي، وبكل لطف دعاني إلى مرافقته، مع تباشير الفجر الندي، وسط غابة حقيقية، وخلال لحظات كان قد ختم الأوراق، ثم طلب مني انتظاره لعدة دقائق، وحين عاد بالملابس المدنية، راح يسألني، هل تعرف الطريق إلى تونس العاصمة، وحين أجبت بالنفي، قال بمرح، أنا هو من سيقودك إلى العاصمة، وانطلقت السيارة، عبر طرق ضيقة مظللة بالأشجار الكثيفة، وخلال دقائق، بدت لي قرية ناعسة،

وهـاهي الآن تـستفيق مـن نومهـا فجـراً ، كـانـت البيـوت مصبوغة باللون الأبيض، ولكنها غارقة حتى أذنيها ، من ظلال الأشجار الباسقة التي تمنع نفاذ الضوء إلى سطوحها وجدرانها البيضاء، وحين وصلنا إلى ساحة المدينة، طلب مني التوقف، وعند مقهى كانت قد دبت به الحركة:

-: ما رأيك أن نرتاح هنا قليلاً؟..

ثم أضاف معللاً طلبه:

-: أنـت بحاجـة إلى بعـض فنـاجين القهـوة، لتـصحو وتنتعش، فأمامنا طريق طويل ..

حين توقفنا عن الجريان، واستقرت روحي من شرب قهـوة مـضغوطة علـى البخـار، طلـب لنـا قهـوة بالحليـب كاباتـشينو، وأقـراص حلـوى علـى شـكل هلالـي، ثـم فوجئت به وقد دفع الحساب، ثم قال لي بكل مودة :

-: ما رأيك لو تتفرج قليلاً، لهذه البلدة سوق فني جميل .. لن تندم أبداً لو قمت بجولة فيه.

تركت السيارة الخنزيرة، فأنا برفقة شخص من هذه البلاد، وحين تجولنا في طريق بعيد عن الطريق العام، اكتشفت شيئاً، شيئاً غريباً، شيئاً لن ينمحي من ذاكرتي

أبداً، فالطريق الصغير الذي نمشي فيه الآن، لا يحتوي غير التماثيل، التماثيل الناطقة، والمصنوعة من خشب الزيتون المقدس، وفجأة أصبحت مأسوراً بمنظر خاص، مكبر ومصغر، غزالة كبيرة تحتضن بين قوائمها غزالة صغيرة، وكان التمثال الزيتوني الرائع مجسماً بشكل فني رائع، ولا ينقصه سوى رؤيتي الحية لغزلان الصحارى، وحينها لم يخطر ببالي غير خالد الأمين، فقد وجدت من الوهلة الأولى هديته التي يستحقها .

من غيرها اشتريت الطاولة والكراسي الصغيرة التي تليق بأطفالي، عند السفر والاغتراب من مكان لآخر في العالم العربي، وأتمنى أن لا تكون نهايتي في قارات بعيدة.

فوجئت برفيقي عبر الطريق الطويل نحو تونس العاصمة، وهو ضابط شرطة، ولهذا حصلت على التحف الفنية بثمن بسيط، وهو شيء بعث السرور في نفسي .

كأن خالد الأمين مازال بجواري، فضابط الشرطة الذي رغب بالسفر معي، رغم وجود رتل من الأجانب، وبدون انقطاع، كان قد قرر السفر معي ؟!!..

تذكرت قول خالد الأمين وهو يقول بكل تواضع: لقد أوصاني أبي ؟!..

سيبقى الأمر سراً حتى اللانهاية، من أين وإلى أين؟!...

كانت الطرقات التي مررنا بها متواضعة للغاية، حتى وصلنا العاصمة التونسية عبر بساتين الزيتون، وفجأة راح يسألني، بكل وضوح:

-: لقد وصلنا الآن، هل تعرف فندقاً أو أصدقاء؟!..

لم يعجبه جوابي، فطلب مني التوقف قليلاً ..

حين سألني بإلحاح: بالله عليك إلى أين أنت ذاهب؟..

قلت له واثقاً -: أنا في بلاد ليست غريبة عني أبداً، فهي مني وأنا منها..أليست هذه تونس العاصمة؟!..

حين أجاب على سؤالي: - بالضبط هي العاصمة.

فكر قليلا، لم ينزل، ثم قال

-: نعم، ولكنك لم تقل أين أنت ذاهب بالضبط؟!.

لاحظ ترددي بالجواب على سؤاله، فأمرني بالسير وفقا لإشاراته، ويبدو أنني كنت قد طاوعته بدون وعي، لأنني صحوت من النوم على فراش وثير، وسط حديقة منزل، ومن حولي طاولة عليها صينية حلويات،

تشبه صينية حلويات زوجتي أيام الأعياد، وبالفعل فقد سمعت نفس التعابير المهللة:

- أهلاً وسهلاً، (جوز)، مرحباً بك ..تفضل عندنا ...

لم يشفع لي كل محاولاتي بمظهر الممتن من كرم الضيافة، كي أهرب بشكل مجرد، وكأن شيئا لم يكن، وبشكل سأبدو فيه مجرد عابر سبيل، وعلى الكل أن ينساه، تلك كانت أمنيتي الخفية، ولم اصدق أبداً، بأنني مرصود من قبل مضيفي الآسر، وبلغة جديدة ولكنها صارمة للغاية:

-: إذا لم تخبرني إلى أين أنت ذاهب؟ بل وأين ستنام؟، فلن تغادر هذا المنزل أبداً.!!..

حينها بدأت ألقي بعض أسلحتي، محاولاً الخلاص منه:

-: ياصديقي ورفيقي في الطريق، ألم تلاحظ العور في سيارتي الخنزيرة، المس مرسيدس؟!، لقد جئت إلى تونس الخضراء بحثاً عن الدواء، فكما السوق الذي كنت قد اشتريت به غزالاً، فأنا أبحث عن الوكالة، لأعود مبصراً بقوة، فقد فقدت القوة على الإبصار والطريق طويل ...

لحظتها تقرر لديه، أن المطلوب هو الشركة، ومعه رست سفينتي الغارقة قبلاً، أمام الشاب الطويل واسمه أنيس، وهو يرحب بي، بينما انصرف ضابط الشرطة وهو يلح عليه موصياً:

-: لا تدعه يذهب لوحده ..

للوهلة الأولى، وبعد فحص السيارة في وكالة مرسيدس الأصلية، تبين بكل غرور، أنني أمتلك سيارة حقيقية، يحسدها الجميع، لأنها ذات امتيازات عجيبة.

بين ضحك وهزل هتف قائلاً:

-: سيارتك كانت قد صنعت من أجل الأعراس، وفي تونس العاصمة، هذا الصيف، لدينا العديد من الأعراس، وأنت الآن ضيفي .

هل قدري أن أكون مجرد ضيف؟!..أريد أن أكون حراً بحياتي، ولو لمجرد لحظات ..

حين خرجنا من وكالة المرسيدس، وتم إصلاحها من كل الأعطال، وخرجت بحلتها البهية، وعاد إليها رونقها الجميل، وفي الطريق إلى الحي الأخضر، قاد أنيس السيارة إلى محطة وقود فخمة البنيان، ثم اتجه نحو المكتب

الرئيسي للمحطة، لم أنزل من السيارة، رأيته يتحادث مع المسئول عن المحطة، ثم عاد مسرعاً وكأنه فقد شيئاً وحين رأيته يهجم على أحد عمال المحطة، ويخنقه بقوة ..نزلت بخفة ثم حجزت بينهما.

كان أنيس يرتعد غضباً، ويكيل الشتائم عليه:

-: باهي يا ولد(الق...)، هذه سيارة مرسيدس، هذه ليست (موتور).. يا (...)، أين علامة الديزل حتى تملاها بالمازوت يا بغل، ماذا لو احترقت السيارة، بدين ربي، كنت سنحرقك معها ..هيا جرها لوحدك مثل البغل واغسل معدتها باهي، نظفها من المازوت، ثم أعد ملأها بالبنزين ....

كان الوقت يقارب العصر، حين انطلق بنا أنيس إلى بيته الجميل، في حي الخضراء الواقع بين منحدرات جبلية وطرق ملتوية، وكان الحي أخضر كما اسمه، فأشجاره الكثيفة، تجعله يظهر كدغل صغير.

كان البيت على شكل فيلا، مرتفعاً عن سطح الطريق، ومحاطاً بحديقة غناء، وله مدخلان، مدخل بالوسط تماماً، وهو المدخل الرئيسي، فبعد فناء واسع

ومظلل بأشجار استوائية، مدارية غريبة، تلاقيه عدة درجات رخامية ناصعة البياض، بينما المدخل الثاني الذي اجتزناه، كان مستغرقاً وسط كتلة ضخمة من زهور الياسمين والفل، بينما كانت سطوحه المائلة، بنيت حديثاً من قرميد زاه، بألوان زرقاء وخضراء.

كان بيت أهله مغلقاً، ومغمضاً، بينما كان الملحق الذي يسكنه مفتوحاً ومطلاً على الطريق، وخلال دقائق لم أكد من خلالها التعرف على البيت، سمعت وشوشة خفيفة، تلتها شتيمة هادئة، تلاها صوت إغلاق باب، فعاد يحمل صينية طعام، كان الطعام ساخناً، وحاراً، وكأنه قد نزل بالصدفة من جهنم .

وفجأة سألني بحرارة: - قل لي بربك، هل تحب الأكل الحار من الفليفلة الحمراء؟.

أجبت بكل هدوء ــ: وهل يوجد ما هو أطيب من الأكل الحار والساخن؟..

أضاف: - هل تعلم بأن أهلي يفطرون صباحاً بسلطة نارية كلها فليفله حمراء مع زيت الزيتون ؟..

حاولت الظهور أمامه بأن الأمر عادي، ولكن حرارة الطعام مازالت عالقة، كذكرى لطعام حريق هبط تواً من نار جهنم، فقلت لنفسي، لعل من يعيش بين الاخضرار الندي سيكون بحاجة إلى لسعة حارة .

لم يسألني عن مدة بقائي في تونس، بل تمنى علي أن تكون طويلة، وحين أجبته:

-: يومين والثالث، وفراق الحبايب ..

رد بلهجة قاسية ـ: والله، وسيدي عبد القادر ..ما تروح قبل أسبوع ..

قلت له راجياً -: اسمح لي يا سيد أنيس، فقط قل لي، لماذا أسبوع بالكامل؟.

رد بصراحة ووضوح:

-: نحن في بداية الأسبوع، وعندي عروسين، سأزفهما بسيارتك، نهاية الأسبوع، وأثناء ذلك سأعرفك على تونس وضواحيها، فيوم للحمامات، ويوم لقرطاج ...ويوم ل ...

حين قلت له:- خلاص، وليكن ..

رد مسرورا : أنت الآن صحيبي ..

لماذا أبتسم أو أضحك كلما تذكرت إحدى الزفات؟..

كانت دار العريس بجوار منزل أنيس، وكنت أجلس على شرفة مطلة على الدار، سمعت أصوات المزامير الصاخبة للسيارات القادمة، وحين اقترب موكب الزفة دار العريس .. انطلقت أصوات الهلاهيل والزغردات وخرج أهل العريس وأخوته فرحين لاستقبال العروس، ولم يكد أنيس يخرج من السيارة ليفتح الباب للعروس كي تنزل، هاهي الآن تنزل ..فجأة خرج العريس، وهو يلبس غندورة، مقطعة، متسخة بأصباغ نافرة الألوان، شعره طويل ولحيته كثة، وفي منظر شحاذ بائس، وقبل أن يتمكن أخوته من القبض عليه وإعادته إلى المنزل، كان قد تناول الأحجار وشرع يقصف بها السيارات، وقبل أن يتمكن من تهشيم زجاج النافذة الأمامي، لسيارة المرسيدس، كان أنيس قد دورها بسرعة، منطلقاً بها كالشرارة، بعيداً عن القصف المباغت .

ضحكت وضحكت كثيراً، وحين رآني أضحك قال ساخطاً:

-: ألعن أبو الزواج ..ألعن أبو النساء ..

وحين سألته بفضول عما حدث أجاب مستغرباً:

-: (صار لي سنين نعرف العريس، إنسان عاقل وظريف ... سحروه .. شربوه سحر ..جننوه ..)، فالعريس صار بكوش، والعروسة صارت عقونة ..

عدت إلى الجزائر، وقد شبعت من الفسحة في تونس، مع أنيس، حيث لم يدع مكاناً مجاوراً لتونس العاصمة، دون أن نراه، وحين ودعني على الطريق الخارجي، وسلمني قيادة السيارة، حلفني أن أعود ثانية، حينها تذكرت خالد الأمين، واهتز كياني من تخيل عمليات التقمص، والحركة الكونية للأرواح في نظريات الثيتان.

اسمع يا أخي أنيس -: أحب أن أودعك وأنت تضحك، سينتظرني عند الحدود أخ جزائري عزيز اسمه خالد الأمين.. هل تعرفه؟.

ضحك وسأل مازحاً:- هل هذه هي الدعابة ؟..

-: لا، إنه يشبهك تمام الشبه ..

- : يخلق من الشبه أربعين ..

-: تخيل كنا نسير معاً، وفجأة لمح درويشاً يسير على باب الله كما يقال، صاح عليه: تعال يا سي محمد، فجاء يهرول فرحاً، يضحك بسذاجة، وعندها قال خالد : اسمع

هذا الأستاذ ..هل تعرفه؟.. إنه مخرج سينمائي من مصر، وهو يبحث عن ممثلين للسينما، وأنت تعرف التمثيل ..هيا أد دور تمثيلي وإذا نجحت فسيأخذك معه إلى مصر .. هيا أسرع قبل أن يذهب .

عندها نفخ الدرويش بطنه، وأعاد رأسه للوراء، كممثلة تخاطب زوجها في فيلم وهي فرحانة :

-: أنا حامل يا أحمد .. أنا حامل يا أحمد ..

ضحك أنيس وهو يخفق بصدره ويديه، ويضرب على ركبتيه، ويردد

- : يا ولد ال (....) .. يا ولد ..

عند الحاجز الجزائري وجدت خالد الأمين متكئاً عليه، ينتظرني بابتسامة مشرقة وحنونة، وإلى جانبه أحد الضباط، كان يحادثه وهو منشغل البال .

-:أنورت وضوت بقدومك ..

لم تطل فترة استغرابي، من لقاء خالد الأمين على الحدود، لأنه شرع يشرح لي، كيف أمضى الأسبوع كله:

-: أردت انتظارك، ليومين والثالث، وفجأة خطر ببالي أنك لن تأتي قبل أسبوع، لذلك قررت العودة للمنزل ثم

سمعت هاتفاً بأنك ستعود في هذا الموعد ، سألت فعرفت أن ضابطاً بالشرطة من أقربائي وهو يعمل هناك على الحدود ، فقررت أن أقابلك على الموعد.

رأيت تمثال الغزالة التي تحتضن ظبيا صغيراً ، موضوعا على طاولة النوم، وكان خالد الأمين ينظر إليه مسروراً.

لم يترك أحداً يمسه، لقد كان يتولى بنفسه تزويقه وتلميعه بالورنيش، كي يبقى لامعاً وزاهياً ، ولم يكن يعلم أنه مهما فعل فلن يضاهي جمال فينوس الرخامية .. وحتى جمال الكثبان الرملية التي تنتصب كأنها حبات رمان تشتعل لهيبا ، أو مجرد لفحة حرارة من نهود فينوس .

....

(٢١)

لقد بدأت أشعر بالجوع، فقد مللت مجرد حشو البطن الضامر بأي علف كان، لقد صرت أشتهي وجبة ساخنة ودسمة ، وفجأة تذكرت وجبة الملوخية بالدجاج المحمر ،

على الطريقة المصرية، وللمرة الأولى رحت أتذكر عزيمة الأستاذ مرسي الرائعة، في الأيام الأولى لمباشرتي العمل، كان صعيدياً، يتميز بالكرم والشهامة، وعلى وجه ما، كان يتصرف كعمدة، وقد أخبرني بعض زملائه من محافظات مصرية أخرى غير الشرقية، بأنه ابن عمدة، كي لا أستغرب تصرفاته، لأن عزيمتي لم تكن مقصورة علي أنا لوحدي، بل كان قد دعا إليها كل المدرسين المصريين، ولم يترك أحداً من المدرسين العرب، إلا ودعاه، فقد كان يسكن في منزل منعزل كأنه يبدو كقصر قديم وسط جنينة صحراوية .

لماذا لم أشبع نفسي؟!. لماذا كنت خجولاً؟.. لم أعبر عن محبتي له، بمزيد من الأكل، لقد ظلت الصواني الكبيرة على حالها، في حين كان زملائي في المسكن يلحون علي بالأكل.

لقد ذبح الأستاذ مرسي كل دجاجات العالم، من المستحيل أن تكون وراء هذه الحفلة الصاخبة مجرد امرأة واحدة، وبالفعل، فقد تبين لي أن مجموعة من النساء كن قد اجتمعن.

كان الأستاذ مرسي ينظر من حين لآخر، بنظرة عتاب وخيبة أمل، نحو زملائي في السكن، مما اضطرهم للتدخل، وكل على طريقته.

كان الحاج أمين وهو ميكانيكي مختص بالخراطة، يدافع عني بالقول:

-: انه لا يأكل أبداً، انه شخص مفكر .. إنه متواضع جداً أمام أشهى الوجبات .. الحمامة تأكل أكثر منه .. حكايته مع الأكل غريبة..!..

بينما كان المهندس مازن، مهندس في الكهرباء، يصرخ بي لائماً:

-: أعطها يا رجل، دعها تعمل وتشتغل ..

كنت أضحك منه، وأرد عليه بشكل خاطئ:

- : هي المعدة معدتي، وأنا أتصرف معها كما تريد، فلماذا أقمعها وأرغمها على العمل بالرغم عنها؟..

كان جوابي له، غير معقول، فعندما سنعود إلى المنزل المهجور، فالكل ينام حتى العشاء بينما سأبقى أنا مثل حارس للمقابر الفرعونية، ابحث عن بقايا أكلة شهية، الآن تأكد لي أنهم كانوا يكثرون من الأكل، بل

ويبالغون فيه، حتى تتخدر أجسامهم من التخمة، ولينـاموا بعدها ساعات طويلة حتى تنقضي الظهيرة الطويلة وهي فترة للحر والضوء الحارق، بينما كان نهاري في الصحراء ومع العمل وكأنه يومان متتاليان، فما أكثر التدخين المصحوب بشرب القهوة، وبين فترة وأخرى اشعر بخفقان قلبي، وكأنني اشهد انزلاق صخور من قمة جبل، فعند ذلك أشرع بالإكثار من شرب القهوة مختلطة بالحليب، لكنني سرعان ما أنسى لأعود من جديد إلى عاداتي القديمة بمجرد التحسن .

كنت ثملاً، أحس بسكرة جوع إلى طعام ساخن وحار، لماذا لم أشبع نفسي من تلك الأطعمة؟!..، وكنت لا أتوقع أن يأتي وقت سأشعر فيه بالحاجة، والندم على ما فات .

سمعت احد الشيوخ يمزح قائلاً: - يا شباب لا تترددوا في أمرين اثنين، العزيمة والهزيمة..!!..

لكل إنسان شراهة ما، وشراهتي لم تظهر يوماً إلا بالدخان والكتابة، وشرب الخمر في بعض الأحيان، وأمام كل هزيمة فقد أدمنت لعبة البحث عن جولة جديدة.

تذكرت صديقي الصحفي زواق، لقد كانت شراهته للدخان شراهة مميتة، كان يلمس السيجارة بحذر شديد يشتم رائحتها، ثم يعيدها إلى العلبة خائفاً، وحين سافرنا معاً إلى مقر صحيفته، في رحلة استغرقت عدة أيام،قرر أثناءها أن يريني سر خوفه من التدخين، ففي اليوم الأول احرق خمس علب من السجائر، وفي الثاني ثمانية علب، وفي الثالث أكمل عشر علب، فأوشك على الاختناق، فتوقف عن التدخين كلية، كان يدخن بطريقة عجيبة، أشبه ما يكون بسيارة تهبط على منحدر، بدون فرامل أو كابح .. إنه يتهاوى ويسقط وفقاً لعجالة الجاذبية في السقوط الحر.

قلت له مؤاسياً -: يا صديقي الآن عرفت أن لا خيار أمامك غير ترك الدخان.. فأنا حين أدخن فسأموت ببطء ..أما أنت فحين تدخن، فكأنك تنتحر على عجالة فظيعة.. أنصحك بعدم التدخين بتاتاً.

كان يحب ارتداء القمصان الحمر، فعلقت عليه ساخراً:

-: يا عربي، لماذا تحب اللون الأحمر؟

رد مفتعلا التباهي:- إنه أحمر من دم الغزال .

- : حرام عليك يا أخي .. قل بلون الرمان أو الكـرز ..لا تكن دموياً.

....

(٢٢)

عرفت فينوس بشكل رمزي، كما عرفت أن زيوس هو كبير الآلهة، وربما جوبيتر، بينما أنا الآن أقف حقيقة أمام تمثال رخامي رائع، هو تمثال فينوس، وكان مع القاعدة يرتفع فوق عدة أمتار، كان جسدها العاري، يثير الشهوة والسهام الكيوبيدية، ثم رحت أتساءل:

لماذا لا تقيم في طرابلس الغرب؟!..دع الصحراء لأهلها الشجعان، فذاك قدرهم ..

جسد فينوس العاري، أجمل عند رؤيته من كل الجداول المنسابة، وهي تترقرق بين المروج الخضراء، وبين غمامة وأخرى يتضاحك مرج زهور، فأنا الآن أسير إيقاع مطر غزير، وخرير شلال أو جدول لا ينقطع وينبوع يقصف العطشان رياً، كانت فينوس مكتملة كبدر تمام، وأكثر سلاسة من بريقه الساحر، هل يمكن لسراب الصحراء وحتى رمالها النقية أن تصنع السحر والجمال المطلق؟!..

كانت فينوس كأغرب ما يكون، بضة تشبه فخذ الفرس الطائر كالحمام، في خفة الحملان والغزلان، وصدر عليه هرمان من الأثداء، عارمان كعنقودي عنب جبلي مهجور ..يا إلهي دعني أضع روحي على تلك النهود للحظات ثم أخطف عمري اللحظة التي تشاء، ثم أعدني عارياً مثل فينوس الخالدة، لأنني أحس أن كل كياني يهتز بحثاً عن بصمة خلود، هي بصمة الحياة، فالحروف السوداء تتراقص كالفراشات حول الضوء، بحثاً عن الصفحات البيضاء .

كنت قد قررت الاستراحة في العاصمة طرابلس ليبيا، وكان علي أن أمضي النهار فيها، كي تأتي الساعة التي أغادر فيها نحو سرت، وبالصدفة قررت زيارة متحف طرابلس، فكيف أصبحت كبرادة حديد منجذبة إلى التمثال المنحوت، مغناطيس فينوس، ورحت أعقد مقارنة، بين الواقع والخيال .

الليلة أسير نحو سرت، كنت أنام بعمق، وكانت كل أحلامي، لو أكون عشيق فينوس طرابلس، وكان كل المسافرين ينزلون، يأكلون، يستريحون إلا أنا ؟!.

إمـام المـسجد وزوجتـه يـشعران بـالغيظ، بينمـا كـان الصحفي الذي يجـاورني بالتنقـل حـائراً، مـن الـسؤال ذاتـه، لماذا لا يستريح هذا المسافر ؟..

في إحدى الاستراحات عاد الإمام ليسأل:

-: أخي العزيز، هل أنت مسلم ؟..

أجبته :- نعم بالهوية ..

امتعض قليلاً، ولكنه عاد ليقول:

-: لقـد ذقنـا طعـم الجـوع، ولـن نـسمح أبـداً برؤيتـه مـرة أخرى ..نحن مسلمون يا أخي ..

فوجئـت بـه يـدفع سـاندويتش ضـخم، وأتبعه بقنينـة كولا، وهو يقول بمرح :

-: كل يا أخي، بالله عليك كل ..

أما الشخص الصامت والذي لم يتكلم طيلة الطريق، وكـان مثلـي، بيـد أنـه كـان ينـزل في كـل الاسـتراحات، يجلس وحيدا، ثم يطلب بكل هدوء أشهى المأكولات .

لم يـتكلم حتـى لحظـة الوصـول، وحـين مـضى الكـل إلى غاياتهم، لم يبرح مكانه .

سـألني بوضـوح -: مـاذا تقـصد ؟.. هـل أنـت ذاهـب إلى مكان معين ؟!..

كان جوابي الواثق من عدة لاءات، على أعتاب الموت جوعاً..

كانت مدينة سرت مثل عقد منقطع، تتناثر حباتها هنا وهناك، وكانت أضواؤها تتلامع كأنها النجوم بالسماء، ثم هبت أنسام البحر الزاخر بالأسماك السلطانية، المتعددة الاحمرار .

أعاد علي السؤال ثانية:- إلى أين أنت ذاهب ؟!..

قلت في قلبي

-: لست الطاهر ولا الأمين، ولا حتى الصافي بن عيسى، ولا زواق بل و العربي نفسه ..اذهب في حال سبيلك ودعني .. دعني لوحدي أعاني وأعني .. فوحده قلب الصحراء الكبرى هو من يسعني..

ثم خطر ببالي أن أسأله، من قبيل الفضول :

-: ما اسمك أخي؟

قال بكل ود: - محمد الأمين ..

سألته، وكأنني غير مصدق: - أقلت أن اسمك خالد الأمين ؟.

أجاب بأريحية: - لا ، أنا محمد الأمين، أو الأمين محمد ..

ثم فجأة، أمسك بزمام المبادرة فقال: - هل أنت عربي؟

أجبته ببرود ـ يمكن ..فإن كان من يتكلم العربية هو العربي، فقد أكون كذلك ..

قال:- أنت الآن ضيفي ..

قلت ـ مالك وعبودية الضيف ؟

أجاب واثقاً -: نحن في عصر الحرية ..

أوقف سيارة أجرة، حدد الهدف له بدقة، وما أن انطلقت السيارة، حتى التفت إلي معاتباً:

-: لقد حيرت كل المسافرين معنا ، من صمتك كأبي الهول ..قل شيئاً يا رجل ..

قلت له -: نعم هذا صحيح، ولكنه غير مقصود ..

قال بكل بساطة:- نحن قوم عاطفيون، نكره التمايز ونحب الانسجام ..

مازلت إلى هذه اللحظة أفترض بأن كل سكان الوطن العربي، هم مجرد عناصر تابعة .. ملحقة وليس لها أدنى اعتبار، فأنت .. أنت لن تحتاج مطلقاً إلى أي كاشف من أي نوع كان، ولو كان بسيطاً..

في هذه اللحظة بالذات، هبت عاصفة رملية، فقد ثار كل شيء، فاضطررت للجوء إلى سيارتي، كنت خائفاً من ثورة الصحراء، التي لا تبقي ولا تذر، إنها الصحراء الكبرى ..

يا الهي، هل يمكن لمثلي أن يبقى على قيد الحياة؟..

كنت أتمدد تحت سقف السيارة، وكان منزلي مغلقاً، من جميع الجهات، انه أشبه ما يكون بمغارة .

كان كيس الخيش المبلل بالماء، يقاوم ويقاوم، من أجل أن أعيش وأبقى، فالجو من حولي صار يخنق كل شيء، وكنت أقول في نفسي: عما قريب سيجف كل شيء، فالعالم الذي نعيش به ليس سوى رمال جافة وحارة، أو مجرد ثلوج ناصعة البياض حتى الما لا نهاية..

كنت أقول في نفسي:

:- لن تهزني أبداً مجرد عاصفة .. أيها الجبل الذي لن تهزك أي ريح ..؟!..

قال لي محمد الأمين فجأة : هل تصدق أننا والصحراء والبحر سواسية ؟.

ثم قال ثانية، وهو يحلم بمستقبل أفضل:

:ـ نحن اليوم نحلم بزيادة خط الاخضرار، نحلم بالقضاء على الصحراء فشيئا فشيئا، سيخضر الفضاء و يتعملق، بينما ستتقزم الصحراء الكبرى وتزول ...

قلت في نفسي متسائلاً:

-: هو يتحدث عن نهاية العالم؟.. أين هذا العالم؟. هل يوجد أصلاً؟ . أين بدايته لنعرف نهايته ؟...

كنت أتمدد مجبراً، وكانت رياح الصحراء تغم كل شيء، تئن وتئز، تولول وتعول، فالرياح قوية، وهي حين لم تقتلع سطح بيتي، سطح مغارتي سيارة المرسيدس، فربما كانت رياح الصحراء تشفق على تيهي وضياعي، ولكنها قادرة، وقادرة حقاً، على إطفاء كل شموع الحب الذابل، تسقطه مع الريح كأوراق الخريف .

كان صديقي محمد الأمين يبتسم من الشبع:

-: أيها العربي .. بمجرد أن تضغط على أحد الأزرار، فسيثور الماء، وتنطلق الحياة ..ستختفي الصحراء، وستظهر الأشجار والحقول، وهذه هي الثورة ..

مضيت معه حيث صاح، فوجدت حروفا رومانية، ولاتينية، على جدول الكهرباء.

كنا قد شبعنا من المعكرونة، وكان مرق الدجاج الأحمر ، يسيل ويقطر بين أصابعنا، بيد أنه لم يقتنع، وبدا حائراً، وكأنه شاهد مسرحية ضعيفة، فصلها الأول مجرد تحيات ومجاملات.

إنها فراغات كبيرة جداً، ولن يكون بمقدور كل فلح العرب، ملء هذه الفراغات الرهيبة، إلا بالكبسة الرهيبة، كبسة الحروف اللاتينية الوعرة؟..

....

(٢٣)

إلى اليوم، وبعد مضي عدة أيام وليال، ظلت الصحراء كأنها القضاء والقدر، ولكنها كالحبس الخفيف،

مجرد عزلة ووحدة، بعيداً عن الناس، ومختلف الأجناس، فلم يظهر بعد أي وحش من وحوشها، فلا شيء غير غزلان الصحارى، فالعاصفة حين هبت غيرت ديكور المكان، فلم يبق شيء على حاله، لقد تغير موضع الكثبان الرملية، اختلف المشهد، فأنا الآن غير مصدق .

حين أطلت خيوط الضوء، وأشرقت شمس هذا اليوم، كنت منبهراً من ضيائها، ومن سكون الأشياء حولي، مرة واحدة صمت كل شيء عن الحركة!.. لقد مرت العاصفة بسلام، كان يمكن لتلك الكتل الرملية الهائلة، أن تقبرني حياً تحتها، فالموت لامناص منه، أتساءل كيف ستكون طريقة موتي المجهولة؟ كيف لم أمت بعد؟. من الغريب حقاً أنني لا أموت؟!. هل يمكن لمثلي أن يكون أقوى من عواصف وزوابع الصحراء الكبرى؟!..

كانت الريح تولول، تملأ السماء صراخاً ووعيداً، وكأنها تهدد العالم بأسره، ثم تسف الرمال الناعمة تنفخها بقوة خارقة، تطوح بها في دوامات تطاول عنان السماء، وهي تزأر كالوحوش الجائعة، فزئيرها أصخب من زئير قافلة أسود جائعة، ومن قافلة جمال حاقدة من الغل والظمأ، فكل شيء كان غائماً، وكنت لا استطيع

رؤية أي شيء من حولي، فالعالم الذي أراه هو مجرد رمال تنطلق كالسهام، في حرب مدمرة لن تبق على أي كائن حي، تمتص نسغه ثم تلقيه على مشاجب قائلة صيفية، فالجفاف لم يترك للنضارة والرطوبة أي مرايا للخيلاء سوى السراب البعيد .

حين مرت العاصفة الصحراوية بسلام، هذه المرة، رحت أتوقع أن تأتي الثانية، فهل ستكون مثل الضربة القاضية، أم أنها ستكون أخف وطأة، فقد تعودت على ثورة الأشياء، أينما كان.

كنت ملثماً بمنديل مبلل بالماء، ومزوداً بنظارات زرقاء اللون، مثل نظارة غواص في أعماق البحار، ليس في البحر، إنما أسفل المغارة الواقعة تحت السيارة، والتي دعمت جدرانها بحيطان من الحجارة النارية .

مضى الليل وهدأ غضب الرياح العاصفة، وانعقد لواء الصلح بين الجيوش المتحاربة،وأشرقت شمس يوم جديد مصحوباً ببرودة منعشة، فلم تظهر أسراب الحمام الأبيض، حتى الظهيرة.

كانت أسراب الغزلان تقترب مني وأقترب منها ، ورغم رغبتي بحمل خشف صغير، فإذا كان منظرها ومجرد رؤيتها يبعث بالنفس مشاعر عطف حميمة ، فتنشأ رغبة وحاجة غريزية باحتضان خشف ومداعبته، فقد قررت أن لا أحمل أي منها ولو للحظة واحدة، كي لا تحبني أو تتعود علي، فالعالم كله ساحة صيد ، ممتلئ برائحة البارود النفاذة ..

لقد تهت بالصحراء، في لحظة خارجة عن التاريخ، وهي لحظة التحقت فيها بمجوعة من الصيادين، الذين حملوا على أكتافهم عدة للحرب، فالصيد أهون ما يكون.!.

ماذا سأقول لتلك الكائنات الحية؟. وكل شيء من حولي يدل على أنها متحيرة من وجودي هنا ، وفي كل صباح كنت ألمح بدقة بالغة مدى اضطرابها ، نعم لقد كانت مضطربة للغاية.

ثمة عائلة غريبة ، وكائن آدمي يبدو غريباً بينهن، لعله لم يكن صياداً في يوم ما؟..

فلطالما لم يكن له أي أذية، فلا بد من فعل شيء ..أي شيء . يمكنه أن يعيش ولكن كيف؟..

هل كانت غزلان الصحارى تفكر بعمل شيء ما؟.. إنني أحس بحكمة الوعول الكبيرة، والأمهات، يتشاورون أحياناً، كن ينظرن إلي بعيون مشفقة، وكأنهن يبحثن عن حل ما؟..

خشف صغار تبقى وتنطلق أخرى ، فالحمائم تنطلق في عدو سريع، وكأنها حمائم البريد، تبحث عن شيء ما، تغيب لعدة ساعات ثم تظهر ثانية، وترمق الأفق البعيد؟!.

هل سأعود إلى الحياة العادية ثانية؟! إنني أحدس ذلك ؟..فمازال ضياعي وتيهي بالصحراء، مجرد عقوبة خفيفة فالإصابة لم تتعدَ بعد حدود الريش، فمن المؤكد أن العيد كان ولى ومضى، وكبشي الصغير الغزال ولن أراه ثانية، فقد فات ما يزيد عن الأسبوع، على نهاية العيد، عيد الأضحى المبارك.

لقد سال دمه وعلق على الكلاليب، فالكل يكرهه ويتمنى لحظة العيد، للنيل منه والخلاص، من كراهيته

لهم جميعاً، فلماذا لم يتحايل عليهم، لماذا كان صريحاً معهم، ألاننا عشنا لوحدنا معاً في الصحراء؟

من الغريب أن ألوم خروي في الغزال!.. لأنه لم يكن سياسياً لامعاً، ولأنه لم يشعر بالحاجة للتقرب إلى أي منهم، وحتى زوجتي البائسة، والتي تشتاق إلى أي لحظة حنان ومودة، كما تشتاق الصحراء الكبرى للندى والرطوبة، لتهدأ وتستقر روحها، وتكف عن العويل والتهديد فالثوران.

يبدو أن خروي في الغزال، كأن قد معمع كثيراً، وملأ أجواز الفضاء بالصراخ، ومرت ماعماعه عبر سكون الصحراء، حتى حارت من صراخه وعول وغزلان الصحارى.

كنت أصرخ بدوري لائماً

-: أين أنت أيها الطاهر؟. لقد أودعتني بالصحراء المقفرة، وحيداً ولا أنيس له سوى غزلان البراري؟!..

أين قافلتك الصحراوية العتيدة؟ أين أسلحة عناصرك؟ أين جيشك الوهمي كسراب الصحراء؟.. أين دولتك العتيدة؟.. أين كلابك المدربة التي تشتم من بعيد؟..لن

أنسى يوم دعوتك لي، لقد خفت منها كثيراً، وهي تهمهم من حولي، وتتحكم بكل داخل أو خارج؟!. بل أين موكب قافلة السيارات التي تعربد في أي بقعة من الصحراء، دون خوف أو حذر، وهذا ما عرفته جيداً غزلان الصحارى.

ثارت زوابع بعيدة، حين كانت غزلان الصحارى تجري بجانبي، وتضعني وتراً في دائرة الزوبعة القادمة،وتختفي كلية، وهذا أمر اعتدت عليه يومياً، ولكن زوبعة الغبار هذه المرة تقصد بيتي ومغارتي، تقصد المس مرسيدس وتقترب كثيراً، هذا غير معقول؟!..

كانت السيارة الأولى قد وضعتني وجها لوجه مع العقيد الطاهر، الذي نزل من سيارته يجري ويصرخ بفرح :

-: أخيرا أنت!.. إنها معجزة!.. معجزة حقيقية.. يا إلهي كم تعبنا في البحث عنك.. اليوم عيد يا شباب ..

فجأة لمحتها، زوجتي، نعم هي؟!.

نزلت بصعوبة، وهاهي تتقدم نحوي، تتعثر وتنهض بتثاقل، كانت تبدو مفجعة وغير مصدقة من لحظات اللقاء ثانية، فالحياة تعود ثانية من جديد، وحين تعانقنا كان اليوم عيداً..

لأول مـرة يحتـشد عنـدي جمـع كـبير مـن النـاس، وموكـب سـيارات مـزودة بكـل عناصـر الحيـاة، من المـاء والغـذاء والـدواء، والأسـلحة الفتاكـة، إن الطـاهر علـى مـا يبـدو واثـق تمـام الثقـة، بـأنني سـأبقى علـى قيـد الحيـاة، وسيلتقي بي مثلما المرة الأولى، لأنني عابر صحراء كبرى، وحـسب رأيـه فـان مـن يعـبر الـصحارى، هـو الغـضنفر الحقيقي، بل من نسور السماء العالية.

حين رأيت الموكب الكبير، مستنفراً كجيش يبعث الهيبـة بـالنفس، شـعرت بطمأنينـة ناقـصة، وخيبـة أمـل انكسرت بحق، على صخور الواقع، فإلى أين سأعود؟.. ومن سأترك؟..

إنني أعني بالضبط، ما أقوله في العبارات التالية:

إن لحظـات النـصر قـد تكـون كاذبـة، وعلـى شـكل حقائق مـرة، فـالعودة للحيـاة ثانيـة، لـن تكـون سـوى أوهـام انتصار، بينما هي تخفي خلف ستائرها آلام هزيمة فعلية!؟.

لا أريد العودة للحياة ثانية، وفق الشروط السابقة، مـن جنـون وجنيـات، وذكريـات مزوقـة، مزينـة بـسراب الماضـي الخـادع، فلـم تـنمحِ بعـد مـن ذاكـرتـي البليـدة، كلمـات

العربي زواق تهدر كعويل زوابع الصحراء الكبرى، وهي تحتج بألم فظيع:

- ارتفعت أسعار المياه والكهرباء والغاز، تم ذلك بشكل مفاجئ، ثم شرعت الحكومة بقطع المياه والكهرباء والغاز وبدون رحمة أو شفقة، فمن لا يدفع فلن يهنأ في حياته أبداً، بعد أن كنا نعيش بأمان، من لحظة الميلاد وحتى الموت، بينما الآن .. والحكومة ذاتها لم تتغير بعد، فقد فقدنا كل شيء، وحتى الخالق العظيم، قطع عنا الهواء الذي نستنشق؟!.. يا ويلتاه ..لقد استبدلوا المجتمع بالاقتصاد!.. ليت الأمر كان قد تم على النحو السابق، يضحك بعد جهد المعاناة.

- : أي معاناة تقصد؟.

يضحك ويقهقه بانفلات ظاهر:

-: جهد العيش بدون ماء وكهرباء وحتى الغاز، وزد عليها سموم الهواء .. فكأن الحياة تعود إلى الماوراء، وهي حين تتحرك فلن تتقدم أبداً.

كان الأخضر قاسمي مدرساً للغة العربية، حريصاً على قيافته وأناقته، بعيونه السوداء وشعره الكحلي،

يرتـــدي بذلـــة سمـــوكن كلاســـيكية، ســـوداء اللـــون، وكرافتة فضية زاهية، ينتقده بشكل تربوي بناء :

- : يا سي العربي .. يا سي محمد ..نحن تابعون للدولـة، إذا انهارت الدولة سنصير أحراراً، وعلى الهواء مباشرة .. بل قل على شفير الهاوية ..لا حرية بدون الدولـة .. الحرية بـدون الدولة مجرد فوضى ..

يضحك العربي فيرد عليه بفكاهة:

- : شكراً على حسن انتباهكم..

حين يتدخل خالد الأمين ويتكلم من وحي قلبه قائلاً:

-: يـا إخـواني لا تنـسوا الـشهداء.. الظلـم يولـد الظلـم.. الكـل يظلـم.. فـالفرد يظلـم المجتمـع والعكـس صـحيح، والدولـة تظلـم المجتمـع والعكـس صـحيح ..الثقافـة المنتـشرة اليـوم هـي ثقافـة الإرهـاب وهـي تعـود بنـا إلى الـدعوة للاحتلال.. كل طرف يتهم الآخر بالعمالة للأجنبي ..

يتدخل العربي ثائراً كعادته، حين يسخر ويضحك :

-: شكرا على حسن انتباهكم .. الدولـة القائمـة على الطغيـان هـي نفـسها مـن يـدفع إلى الثـورة والعنـف، وثقافـة الإرهـاب ..الدولـة تحولـت إلى خنزيـر بـري يـصعب علينـا لـي

رقبته .. أو قل مثل الثور الهائج .. فمن الأفضل طعنه بحربة نجلاء قاتلة ..

حين سأل خالد الأمين وهو مستاء وحزين:

-: من أين جاءتنا ثقافة العمائم والعقل والشراويل القصيرة؟.. واللحى كالمكانس ..شيء عجيب!!.

على الفور رد العربي وهو يضحك كطفل:

- شكرا على حسن انتباهكم .. من الدولة يا أخي ..نعم من الدولة ..الدولة هي المسئولة عن كل هذا الضياع الذي نعيشه ..لا احد سيعفيها من المسؤولية ..الدولة التي وجدت بالشعب ومن أجله يا أخي .. هي اليوم تتغذى من دماء الشعب .. من الشعب إلى الحكومة في اتجاه واحد .. كما يفعل الخنزير بدون رقبة ..

هنا تدخل الأخضر محتجاً ببرود:

-: عن أي حرية نتحدث!.. هل هي حرية القتل؟!..

هنا يتدخل العربي مرة أخرى بدون ضحك:

-: شكراً على حسن انتباهكم .. لا أحد يجرؤ على القتل سوى الدولة المنفلتة من عقالها ..الدولة وحش كبير

إذا ما انفلت من عقاله ..الدولة هي الوحيدة القادرة على التنكر وفعل أي شيء ..

ذكرياتي مجرد تصورات عبثية، أو تجارب سطحية بدون خبرة، فهي لم تندمج بعد في اسطوانة الحياة، حتى لو كانت مشروخة، وكأنها لم تشعر بالعناء بعد ؟!.

عناء مجرد العيش في كل لحظة من لحظات الحياة، الآيلة إلى الزوال، عناء مجرد البحث عن العيش الشريف، بدون نزيف جروح دامية، وابتلاء مصدره كثرة البشر، وقلة اجتماعهم ؟.

خالد الأمين هو (أبو الشهداء وأمهم)، هذا ما يقوله عنه العربي والأخضر وبن شهره، والصافي، فقد جمعنا عصر يوم ربيعي من العام ١٩٩٢، لم يقل شيئاً، كان يحثنا على الإسراع بلهفة وشوق، وحين ازدحمت السيارة بالأصدقاء، هتف : إلى المستشفى الوطني .. الجميع سأل بفضول وخوف : خير إن شاء اللّه..!.

في ساحة المستشفى الخارجي سمعنا أصوات الزغاريد، حيث تجمعت بعض النسوة والرجال والفرحة بادية على وجوههم، وعلى الأرض فوق علم جزائري كبير

وضع جثمان شهيد ، كامل الهيئة وبملابسه العسكرية ، كان لونه متربا ً بعض الشيء، ولكنه كامل الملامح والقسمات، نحيف وجلده مشدود بقسوة، لأنه نزف الدم، والماء، وفي حين كنا نتحادث مع الشرطة ورجال حزب جبهة التحرير الوطني عن تاريخ الشهيد ، فالشهيد معروف وهو قائد عسكري لمجموعة من المجاهدين، وقد فقد إثر معركة في ١٩٥٧ ، ورحنا نتفحص الوثائق التي كانت في جيوبه ، وسط عيون أخوته وأحفاده الذين أسرعوا لملاقاته بالزغاريد في فرحة عارمة ، أما خالد الأمين فكان قد تجرأ وتعدى الحاجز فحمله بين يديه وشرع يلثمه، ويقبله حيثما تقع شفاهه، تشممه بشراهة : مقبلاً رأسه، يهتف فرحاً : أطيب من رائحة المسك!!..

لم يتوقف عن حمله حتى تدخل أهله برجاء تركه ليتمكن الزوار من مشاهدته.

....

(٢٤)

لقد تعبت من الهيام مع أسراب الغزلان، كما يحدث معي عادة حين أجلس بالجزائر.. في حدائق وساحات، أسمع هديل الحمام، فوق الأشجار، وعلى القرب مني ..تهدل آمنة.. فالعالم كله طمأنينة وسلام، والبعيد البعيد ، حيث يهدر الفرات وتخفق أمواجه فأضيع في المشرق وأتيه، كما يحدث ذلك بالمغرب .

هل سأعود ذات يوم؟.

كانت دموع الجنية زوجتي صادقة هذه المرة، إنها كذلك في كل مرة نفترق، فعندما أفارقها تذوب بلحظات الغياب كل صخورها القطبية المتجلدة، وتصبح مثلي الآن تائهاً، هائماً بالصحراء الكبرى .. لا تقر أو يستقر لها حال حتى تراني عائداً إليها ، فتقتلني حراً وبرداً من الضم ولوعة الاشتياق، ولكنها سرعان ما تتحول إلى تلك الجنية التي تنفث ببوزها الطويل بالفانوس كسلاً ، بحثاً عن لحظة

حياة وديعة، وآمنة، من البداية وحتى النهاية.. فلابد من وضع عقد.. عقد يمنع فوضى العقل والحواس..

كان عقدي معها بدون شروط، فليس هناك شرط أو جزاء، سوى قولها البسيط:

-: إنك لن تعرف أبداً من ستجد فيه الخير؟!..

لا شيء سيستمر ويبقى، وسيبقى المجهول مجهولاً، ما لم نعرف عنه شيئاً، مجرد شيء قليل، فنزيف الصور والخيالات، ستظل رغم رقصات خيالاتها السرابية، الأوهام التي تحضر عند إغماءة الأحلام، وحالة فقدان الوعي، وذوبان جليد الشعور، وهو ما يحدث خارج العادات، فلكل موت أكيد، مناطق مجهولة، مناطق سرية، تسكنها الأوهام، والخيالات المريضة، وسراب الصحراء الكبرى.

لقد فرت غزلان الصحارى إلى أعماق الصحراء المقفرة، فرت هاربة من مطاردتهم الهمجية لها، فلن تسلم تلك الكائنات البديعة من بنادق الصيادين، حتى في أماكن خاوية من المراعي، لأنها قاحلة والماء فيها نادر الوجود، لن أعود إلى سجن الجنية ثانية، أريد الحرية

فحياة الحرية لا تقدر بثمن أبداً، بدون الحرية سيكون هناك سجن أو موت، الحرية هي قدري الآخر وهو المفقود، فلا يمكن لي أن أكون بدون حرية، النساء اللواتي أراهن كغزلان الصحارى، ويطرن كالحمائم في فضاء شاسع، إلا هذه الجنية المقيتة، لقد حولت الحياة في المنزل، إلى سجن فظيع، سجن مظلم لأنها تكره الضوء، وتستريح في العتمة، وتحارب ليل نهار، الغبار الشفاف، لقد أعجبتني اللعبة الطويلة، التي عشت فيها لوحدي، متوحداً مع ذاتي، وهي لعبة مطاردة لأفكار وصور أوشكت أن تفر من ذاكرتي المتعبة، من الرحيل، من بلد لآخر، لقد صارت الحرية بالنسبة لي تعني أن لا أكون معكم، الصحراء ليست هي الجحيم، فالحياة معكم هي الجحيم الحقيقي، ففي الصحراء توجد حياة مجهدة، وهي حياة شاقة، لكنها مع الوحدة والسكون الطويل، والتوحد مع الذات، مع الوحي المشوب بالهذيان المتواصل، الصحراء الآن تنبض بالحياة .. وهي حياة صامتة ..حياة متشحة بالغموض ..مقترة بعناصرها وبألوانها وندرة الكائنات الحية فيها .. ولكنها ملجأ آمن لغزلان الصحارى.

الحشد الكبير من السيارات المصفحة والمزودة بصهاريج كبيرة، ماء ووقود وأسلحة.. نادراً ما أرى الحاج الطاهر يضحك كالأطفال، لعل عدوى انتقلت إليه من رفقة محمد البخاري الضاحك الأبدي.. حين ألقيت بكل المواد الغذائية الموضوعة بعناية في صندوق السيارة، فكان البخاري يهتف ثم يضحك:

-: لمن تترك هذه الحاجات؟!.. لوحوش الصحراء !!..

-: لا أبداً، ليس بالصحراء أي وحش .. الصحراء وحدها هي الوحش الكبير .. الصحراء هي وحش الوحوش يا بخاري .. سأترك الأغذية والمياه لغزلان الصحارى..

حمدا لله على سلامتك .. إنها معجزة أن نلقاك على قيد الحياة .. لن تنساك ذاكرة مدينتنا أبداً، أبداً..

كيف حصل ذلك ؟ .. مؤن الخروف هي التي أنقذتني من الهلاك .. من الموت جوعاً وعطشاً.. أما الغزلان فقد ظلت تناور وتناور، تطير من مكان لآخر ثم تعود إلى مكان وجودي، تعدو كسرب الحمام الأبيض، تقطع أوتار الدائرة، فلأقطع لساني الذي ودع الصيادين وهو يصرخ:

-: يا طاهر اسلكوا أوتار الدائرة لتقطعوا الطريق على غزلان الصحارى، يا إلهي ماذا يحدث لو أنني كنت كالوحش عائداً معهم من اليوم الأول ملطخاً بدماء تلك الغزلان الآمنة التي تنبض بالجمال والحيوية، بعيونها الحور الناطقة.. حمد لله على سلامتهن وخلاصي من تلك اللحظات.

الآن سأترك شيئاً من روحي وكياني في الصحراء الكبرى .. أشياء منقوشة على الحجارة النارية الحمراء حيث كتبت بحروف نافرة .كالشاهد على قبري الذي كنت سأموت فيه ..مجهولاً وضائعاً.. تائهاً في أعماق الصحراء الكبرى ..هنا يرقد صياد الغزلان المغرر به .. الصياد الذي يكره صيد الطيور .. فكيف ورط نفسه وألقى بها في أتون حرب دموية .. ليست حربه أبداً ..

سأعود الآن إلى صحراء حياتي اليومية.. سأعود إلى حضن غزالة واحدة.. الغزالة الواحدة ليست سرباً ، كما الزهرة الواحدة لا تصنع الحديقة.. بل سأعود إلى الحياة في سجن الجنية.. الجنية المتقلبة الأطوار.. تارة أنا حبيبها الأوحد وتارة أنا عدوها الوحيد من بين كل شيء موجود في هذا العالم.. أنا هو السبب الوحيد لشقائها وأنا هو من

يصحرها وينفث زوابعها الخانقة، وأنا هو من يثور بحرها بالأعاصير؟!.

سأتصالح مع نفسي.. لابد من ذلك.. لقد تأكدت عودتي مجدداً لأن لا حياة مع اليأس.. شكرا لغزلان الصحارى.. شكراً لغزلان آنستني.. لقد آنستني وبددت وحشتي في مكان مقفر وموحش.. في جوف المتاهة ومن قلب الصحراء الكبرى.. أعادتني إلى الحياة ثانية.. غمرتني بالآمال الكبيرة..

يا لغزلان الصحارى...... يا لغزلان الصحارى.

بطاقة تعريف

أحمد محمد مصارع، من القطر العربي السوري، مواليد الرقة ١٩٥٣/١/١ ، درس الابتدائية بمدرسة الرشيد والإعدادية بثانوية الرشيد بالرقة، أتم دراسته الجامعية في الجمهورية العراقية ببغداد، بكالوريوس في الاقتصاد، كلية الإدارة والاقتصاد بالجامعة المستنصرية في العام ١٩٧٦، عمل كأستاذ للرياضيات في معاهد تكوين المعلمين بالجزائر وليبيا.

كتب منذ منتصف الستينات، في مختلف مجالات الفكر والأدب، وحاز على عدة جوائز في القصة والرسم، أسس وكتب في الكثير من الصحف والمجلات العربية، ولم يتسنى له الظرف المناسب لنشر كتبه الأدبية خاصة في القصة والرواية، وهو يعمل حالياً على نشر بعض كتبه المعدة للطباعة ومنها:

١. يا لغزلان الصحارى (رواية).
٢. عند حواف الموت (مجموعة قصصية).
٣. كاريكاتير عن بلد كبير (مجموعة قصصية).
٤. الوجود في بر الأجلاف (رواية).
٥. البحث عن غيلان (مجموعة قصصية).
٦. ميقاتية للرمل والتراب (مجموعة قصصية).